محمد النعاس

الروائي الحائز على الجائزة العالمية للرواية العربية

مكانٌ لا تجوبه الكلاب

A PLACE WHERE DOGS DARE NOT ROAM

قصص قصيرة

دار الفرجاني

محمد النعاس

الروائي الحائز على الجائزة العالمية للرواية العربية

مكانٌ لا تجوبه الكلاب

A PLACE WHERE DOGS DARE NOT ROAM

قصص قصيرة

دار الفرجاني

مكانٌ لا تجوبه الكلاب

محمد النعاس

محمد النعَّاس قاص وكاتب صحفي ليبي من مواليد عام 1991. صدر له «دم أزرق» (مجموعة قصصية) عام 2020. وفازت روايته «خبز على طاولة الخال ميلاد» بالجائزة العالمية للرواية العربية للعام 2022.

محمد النعاس

مكانٌ لا تجوبه الكلاب

مجموعة قصصيَّة

دار الفرجاني

دار الفرجاني

الطبعة الأولى 2022

جميع الحقوق محفوظة للكاتب محمد النعاس ©

ردمك ISBN 9789775496898

رقم الإيداع: 19621 / 2022

9 ميدان الذهبي

منشيه البكري

القاهرة

جمهورية مصر العربية

Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الفهرس

إهداء
مكانٌ لا تجوبه الكلاب
هيمنجواي ليبيًّا
الصبَّارة تمنح حضنًا
سبوندا
الحب، البالونات وسيارة الآيس كريم
العِراك
رحلة إلى تونس ، أو الموت
قصة المحطة 69

إهداء

إلى غسَّان الفرجاني
إجلالًا للحب والعطاء اللذين تمنحهما أينما حللت.

وإلى ريما، كالعادة.

هذه القصائد لم تُكتب لمناسبة،

كُتِبت لدهرٍ من الحزن والتحدي،

لا خوف أن يطول،

ما دمنا ننبض والأفضلون يحملون السلاح،

اغفروا لي حزني وخمري وغضبي وكلماتي القاسية،

بعضكم سيقول بذيئة،

لا بأس،

أروني موقفًا أكثر بذاءةً مما نحن فيه

مظفَّر النوَّاب

مكانٌ لا تجوبه الكلاب

(1)

– اعدمه.

تثاقَلَت بندقيته تحاول يده جرَّها على امتداد ساعده، لأول مرة في حياته قد تغيَّر ملمسها المخلَّق من لوح الماهوجني على كفِّه، ليحسَّ به خَشِنًا وباردًا، ملأ فوَّهتها وتقدَّم في خطًى حثيثةٍ نحوه، زمنه يمرُّ كأنه أيام، أشهر أو أعوام. العَرَق يتسرَّب من جبهته، كانت رقبته دَبقةً من العرق، حرَّر زِرًّا في قميصه الأبيض، العرق بين إبطَيْه يزيد من خُضرةِ بدلته العسكرية: خُضرَة تشبه ورق الخَروع أثناء تَبلُّلها بالندى، ذلك الندى الذي يأتي خلال حَرِّ الصيف، بدلته المليئة بدبابيس لا يتذكر كم أفنى من عمره ليضعها، لا لكي يثبت شيئًا: لا كونه وطنيًّا، لا كونه بطلًا، لا شيء آخر. البدلة الخضراء القديمة بدت أكثر ضيقًا عليه، مضت سنواتٌ قلائل منذ آخر مرة قُدِّر له أن يرتديها رداءً رسميًّا. متى كان ذلك اليوم الذي اتُّخذ فيه القائدُ قرارَ إعفائه، مع المقدرة على استدعائه متى ما شاء؟.

أراد أن ينفِّذ الحكم بكامل حُلَّته، رغم أنهم قد سمحوا له بأن يرتدي الجلابية التي اعتاد –رغم أنفه– على الراحة والانتماء التي تعطيها له.

ولدته له، كانت الأم مُتعَبة تخوض في نومها عندما تعرَّف على وجهه لأول مرة. توقَّفت مدافع الحرب وارتدَّت بنادقها إلى المخازن ومرَّغ تراب الصحراء وجه آخر جنوده، لم يعلم كيف ومتى ولماذا انتهت، كل ما تلقَّاه ضربة مُوجِعة ليضطرَّ للانسحاب مع سراياه، لم تكن هناك أية أوامر؛ إذ إنه بصفته عبدًا للأوامر: لا يناقش، لا يسأل، لا يفكِّر. إنَّ الأوامر لم تُعدَّ ليتمَّ نقاشها على ما اعتاد البشر في ما يعتقدونه؛ لذا فإن كل ما كان يفعله هو طاعتها. عاد من وراء صحراء تلك الأرض ليجد في عينَيْ الوليد شَرَرٌ يخبره أنه ذَكَر. كان صحبة أحد أصدقاءه الضباط لما رآه. صديقه حمله عنه ونظر في عينيه ليقول:

– يا وحش.

في الممرِّ المؤدِّي إلى الجِنان لمح صورة له معه. الصورة المعلَّقة بجانب مرآة المدخل جعلته يحوِّل ناظرَيْه بين ما كانه وما يكونه الآن، يجلس فيها بهيبة بدلته العسكرية وبجسده الممشوق وشعره المغطَّس بزيت الزيتون وشاربه المعقوف، وعلامات الحنكة وجدلُ الشباب في وجهه، يقف أمام المرآة وبطنه الذي انتفخ كالخميرة من غناءِ الكُفرةِ* لياليه تكاد تنفلت من

الأزرار والشَّيْب يتسارع ليشتعل في جسده، بينما يرقد شارِبُه مخذولًا على شفته العليا، وجهه الذي اعتاد على أن يرى فيه الطموح بدا مكلومًا، فيها يجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ أخضر، يرقد عليه جِلدُ ورأس ثعلبٍ برّيٍّ كان قد اصطاده خلف الصحراء أثناء الحرب، أبعد من وادي دوم. الآن لا يذكر مكان الكرسي، ولا مكان الثعلب الذي ألقى به إلى القمامة. في الصورة، وليده يجلس على فخذه اليمنى، ينظر إلى الكاميرا بعينين تحتكران مشاعره. درَّبه طيلة حياته ليكون أفضل الجنود، أقوى الجنود، الجندي الذي لا يلتفت إلى الوراء فقط من تلك النظرات التي تملَّكَته. البندقية في الصورة خلف الكرسي، وفي المرآة تمسكها يده المهزوزة الثقة.

ثقته التي اهتزَّت منذ أن حدث ما حدث. بعد أن فشل مشروعه وتركه لله، بين البيت والمسجد، تحتلُّه أفكار أخرى غير أفكاره. فكَّر أنَّها كانت أكبر أخطائه، وأنه ما كان عليه أن يتركه لله كما أمره أبوه. ثقته التي اهتزَّت لما اعتقد أنَّه يمكنه أن يصنع من بشريٍّ آلةً تُنفِّذ الأوامر دون أن تنقاد للحظات الجنون، وثقته التي اهتزَّت لما اعتقد أنه يمكن لحيوان أن لا يتبع غريزته في الحرية واللعب.

عندما سكنَ أوَّلَ مرة في شارع الشاحنة الحمراء لم يكن الناس يتفوَّهون بشيء إلا بالأسباب التي تجعل أحد المقرَّبين

إلى القائد أن يقطن شارِعًا منسيًّا كهذا، جاء هو ووليده وقَطَنَ البيت الذي يلتصق بالشاحنة الحمراء القديمة، التي تَنبُتُ من عجلاتها الممزَّقة شجرة خَرْوَع، تَسمَّى الشارع باسمها؛ إذ إنها وُجِدَت منذ نشأة أول منازلها في ساحة اللعب بالشارع –كان الشارع عبارة عن سانية واحدة كبيرة– تَقادَم الزمن على الشاحنة لتصبح ملعبًا للأطفال، مدرجًا لمشاهدة مباريات كرة القدم، مكانًا للاختباء، حمَّامًا عموميًّا يتشكَّل مع التصاقها بشجرة الخروع وحائط بيت الضابط، مأوًى للهاربين من المدرسة، أو مَضافةً للمراهقين الذين يحاولون برعشة التجربة الأولى تدخينَ سجائرهم المسروقة من عُلَب آبائهم، عندما يأوون للقيلولة بعد يوم عَملٍ مُضنٍ بالشاي والأوراق الحكومية والأحاديث. ولأن الناس لم يعتادوا على أن تقطن شخصية كبيرة الحيِّ؛ فإن استغرابهم زاد عندما يبقى البيت وحيدًا، وتختفي الحياة فيه أيَّامًا، لتعود للبيت أيَّامًا أُخَر، حتى ظنُّوا في بعضِ الحالات أن قاطنيه مجرَّد أشباح، لولا الحارس الذي يُخلِّفونه في جِنان البيت وباحته يسرح. سِتُّ سنوات مَضَت يتنقَّل فيها بين البيت ومعسكره في الكُفْرَة، حيث يمضي أيَّامَه بالتدريب وصياح الجنود، كما يمضي لياليه صُحبةَ أصدقائه الضباط باحتساء الكُفرة يشرح لهم مدى أهمية خَلق الجندي المثالي، وأنَّه لم يَجِد بين كافة الدفعات التي درَّبَها واحدًا يمكنه أن يكون جنديًّا صالحًا لدخول معركة. يحكي لهم عن أيام الحرب الأخيرة، وكيف كان الجنود الذين تراوَحَت أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة والعشرين يتغوطون في سراويلهم ويبلِّلونها في مواجهة الموت. يحدِّثهم عن مشروعه الذي يعكف عليه عن الوليد. يعود للحَيِّ، لشارع الشاحنة الحمراء، يشاهد الأطفال يلعبون الكرة أمام بيته فيستخف بآبائهم الذين لا اهتمام لهم بمستقبل أبنائهم؛ يتركونهم ينفلتون من عقالهم. يدخل البيت ليجد الوليد يقف هناك بانتظاره، يتفحَّص وقفته. يبتسم؛ فالانضباط الذي ترسمه وقفته، المشاعر التي تصنعها فيه نظرَتُه المطيعة كانا لا يُقدَّران بثمنٍ في صدره. كان نظام حياته مبنيًّا على مبدأ الجيوش الشيوعية التي تَدرَّب على أيدي ضبَّاطها، يرى كل شيء من خلال بدلته: تَعامُله مع الناس، مع أُمِّ

الوليد، مع سيارته، بيته، ملابسه المدنية، صحون مطبخه، جِنانه، الأطفال في الحيّ، وآبائهم وأمَّهاتهم، أصحاب الدكاكين والتُّجَّار والموظفين الحكوميين... كلها كانت نابعة من بدلته العسكرية، كل شيء يجب أن يسير حسبها، الجميع: جنود أو ضبَّاط أعلى رتبةً في عينَيْه؛ لذا ربَّى وليده على هذا المبدأ.

«الحارس» والحارس... كانا أشَرَّ مَن عرفهما الشارع.

(2)

كان الحارس ذئبًا شرسًا، مُزِجَت فيه درجات البُنِّيّ كاملة. هالةٌ سوداء حول عينيه، تزيد من شراسة مظهره من النظرةِ الأولى. شغل أحاديث الأطفال الذين يلعبون الكرة في الساحة الملاصقة للبيت بين العصر والمغرب. كانوا قد صنعوا مرميَيْن من ألواح فضلات البناء التي انتشرت في نواحي الشارع الشاب الذي لم يَزِد عمره عن عشرين سنة، نصبوا المرمَيَيْن لتشكِّل الساحةُ مَلعبًا لكرة القدم مُجهَّزة بمدرَّجَيْن: الشاحنة الحمراء من ناحية، وبئر عربي قديم في الناحية المقابلة من مخلَّفات السانية القديمة، اكتسب الملعب لذلك أهميةً للأطفال والشباب؛ فقد كان الملعب الوحيد الذي يملك مدرَّجات للجلوس ومشاهدة المباريات بين الشوارع. لم تتوقَّف الأقدام الحافية لذلك من الجري على أرضيته وركل الكرات هنا وهناك، في الصيف والشتاء، تحت المطر وفي قيظ الحر، لا تتوقَّف أبدًا عن الهرولة، ركل الكرات والإصابة بجراح إلا عندما تُقذَف الكرة في البيت الذي يقطنه الحارس. عند ذلك يهتاج الجميع، ويصبح عمر المباراة على المحكِّ. لطالما كان الحارس في بيت «الحارس» كابوس الأطفال.

إلى هذا اليوم، ورغم أنَّ هواية اصطياد الكلاب الشاردة والتجوُّل بها بين شوارع الحيّ كانت من هوايات الأطفال، إلَّا أنَّ أحدًا من أبناء الشارع قَطُّ تجرَّأ على فِعلها، خصوصًا بعد الحادثة. تتجرَّأ مجموعة من الأطفال أن تخطر ببالهم تلك الفكرة الجنونية واللَّذَّة في جرّ أحد الكلاب، يحلمون بأنفسهم يحاصرون الكلب في زاويةٍ بعِصيِّهم وحبلهم، ويتمكَّنون منه فيربطون الحبل على رقبته ليجرُّوه به. ويضربونه ويسيرون به في الأحياء والشوارع، مُهلِّلين وضاحكين ومُغنِّين، والكلب ينبح بحثًا عن النجدة. يسيلُ منهم اللعاب لمجرَّد حضور الفكرة فقط، فيخافون ويرتدُّون على أعقابهم حالما يتذكَّرون أنه –وفي يومٍ ما– جعل الحارس الحيَّ يخشى من تربية الكلاب، ولم يدخل الشارع مُذَّاك كلبٌ واحد. كان هنالك زمن لم يَعُد أحدٌ يعرف الفَرقَ بين الكلاب والبشر، كان الجميع يطلق على بعضهم البعض مَسبَّةَ «الكلاب»، بدأ الناس –تقيُّدًا بالقائد– بتوصيف بعضهم البعض بلفظ الكلاب، «كلاب ضالَّة» و»كلاب سائغة» وكان الأطفال يسوقون الكلاب في الشوارع، أخرج الناس أمثالًا قديمةً عن الكلاب، ونفخوا فيها الحياة، وقالوا: «ذيل الكلب لا يعتدل أبدًا»، وظلُّوا يُشبِّهون بعضهم بعضًا بالكلاب. وقد قامت الحكومة بإخراج دفعات من جهاز مكافحة الكلاب الضالَّة، الحيوانية منها والبشرية، في الداخل والخارج، حتى اعتقد الجميع أن لا أحد منها يجوب الشوارع أبدًا.

مدَّ يده إلى الصورة، وضع البندقية جانبًا وتفحَّصها كأنه يبحث عن شيءٍ ما داخلها، تذكَّر صديقه أيام الحرب وهما يسهران في الليل بعيدًا عن القتال والجنودِ الهاربين، يقول له متهكِّمًا وهو يحتسي دوره من الكُفرة، ثم يُمرِّر له دورًا في كأس الشاي:

– إن كنتَ تريد حقًّا أن تصنع جنديًّا مثاليًّا، فعليك بتدريب الكلاب.

– الكلاب؟. يتساءل وهو يحتسي مرارة الشراب. تلذعه حرارته وتَهكُّم صديقه.

– نعم، الكلاب... الكلاب مطيعة. عرفتُ في روسيا كلابًا تحمل رُتبًا يُمكِنها أن تُسيِّر جيشًا. تخيَّل جيشًا من جنودك يقوده كلب. يقول صديقه ويتفحَّص عينيه بابتسامة.

– أتعرف المسبَّات التي أستخدمها في سَبِّ جنودي؟ «أنتم كلاب... وأقل من كلاب». يقول ويملأ دوره ويمرِّره له.

– إنهم أقلُّ من كلاب. اسمع، عندما نعود من هذه الحرب سأهديك جروًا، لديَّ كلبة أعتقد أنها قارَبَت على الإنجاب. «وولف» يا صديقي: الشراسة في أشدِّها. آخر ما تبقَّى من الذئاب المطيعة.

يقول صديقه، يُمرِّر أصابعه على كأس الشاي المملوء بالشراب المرِّ وهو يحكي له روعة حيوانه، التي ابتاع أُمَّها جروةً من روسيا. ثم يذكر له روسيا والأيام التي أمضاها فيها، الحسنوات التي أحبَّهنَّ أو ضاجَعهنَّ، والڤودكا التي شربها، ودمى الماتريوشكا التي اشتراها، والعَلَم الروسي الذي وقف تحية له، والتدريبات القاسية التي تلقَّاها في الجنس والجيش، كل ذلك الذي عايش هو منه التدريبات القاسية والڤودكا. يقاطع صديقه قائلًا:

– ربما علينا أن نرسل كافَّة الجنود إلى بلدٍ أخرى.

– تريدنا أن نحتلَّ بلادًا بعَرَبَدَتِنا؟ هاهاهاها... كانوا يرسلون بضعة عشرات منَّا ولم نكن منضبطين. يصرّح بالكلمات عاليًا في سقف الغرفة الوحيدة المدمجة بمروحةٍ في المعسكر.

– أنا كنتُ منضبطًا. يقول له وهو يفحصُ ضوءَ المصباح الأصفر يحرق حائط الغرفة ويزيد من عَرَقه. كان سهل التَّعرُّق.

– أنت لا زلتَ منضبطًا صديقي، منضبطًا إلَّا عندما يتعلَّق الأمر بالشراب. يسخر صديقه ضاحكًا.

– لكنَّ الكلاب في هذه البلاد إمَّا للحراسة أو لتزجية أوقات الأطفال. قال له.

– حسنًا، أنتَ صديقٌ قديم للقائد. بحقِّ المال الذي كان يقترضه منك، يمكنك أن تجعله يستحدث وحدة الكلاب. يقول وهو يتجرع كأسَيْن على التوالي يفصلان نصف كلماته، من نصفها الآخر.

– هاهاهاهاهاهاها... لم يَعُد يُنصِت لهكذا أحاديث. يقول.

– يمكنك إقناعه بأهمية الأمر. لكن عليك أن تجد مَسبَّاتٍ أخرى لوحدتك إن حدث شيء كهذا، مَثَلًا: أن تقول لجنودك: «أنتم بشر... وأقلُّ من بشر». لا تريد أن تسبَّ كلبًا بوصفه بالكلب؛ سيبدو من الغباء فعل ذلك.

ينهي صديقه الحديث ليصمت هو رافِعًا كأسَهما الصغير قائلًا:

– صِحَّة.

– صِحَّة... صِحَّة للحارس؛ أكثر الضُّبَّاط انضباطًا. يقول له صديقه مُمرِّرًا كأسًا آخر.

كانوا يشربون أدوارهم بسرعة، بجَرعَةٍ واحدة في كأس شايٍ صغيرة، لا تتعدَّى 50 ميلليلتر، في ليلة من ليالي الحرب البائسة. فقدوا جنودًا كثرًا، بعض أولئك الجنود كانوا هم مَن قتلوهم. كانت هناك أوامر تحظر عليهم أن يولّي جنديٌّ واحدٌ الأدبار. كان يُشرف يوميًّا على إعدام الذين يحاولون الهرب. الصحراء، الحرب، الجِنُّ، العَدوُّ الخفيُّ، الأرض العدُوَّة لهم... كانت تصيب الجنود بالهلع والرعب، بعضهم جُرَّ من مدرسته الثانوية «ثكنته العسكرية» – إذ الجميع بحكم إرشادات القائد هو حاكم، ثري، وجندي–.

يغيب المشهد، يرى قميصه وقد بلَّل عرَقُه العُنقَ واللَّون البني يوسِّخ حوافَّه. عاد لغرفته، نزع الچاكيت، نزع القميص. ارتعشت أصابعه وهو يُمرِّرها على الأزرار، ألقى بالقميص على الأرض ومضى يبحث في خزانة الملابس عن قميصٍ آخر نظيف. لم يكن شيء يحدث كهذا قبل اليوم. قال لنفسه في خذلان.

(3)

ويحدث أن يركل أحدُ الفِتيان الكرةَ لترتفع عاليًا، ينظرون مشدوهين من ارتفاعها واندفاعها نحو السماء، داعين الله ألَّا تتعدَّى حواجز السور العالي لبيت «الحارس» –السور الذي يشبه أسوار المعسكرات–، لكن الله يُخيِّب دعواتهم، لتُسرِع الكرة مختفيةً، تسقط حيث يقبع الحارس، يصنع الفتيان سُلَّمًا بشريًّا ليتمكَّن أحدهم من تسَلُّق السور، يصل يجول بناظريه في الجِنان، يجد الكرة قد استأنَسَت مكانها تحت إحدى عَمَّات الرِّجال: النخيل، التي تدور في هيئة مستطيلةٍ حول الجِنان الترابي، يجول الفتى بجسده بحثًا عن البناء الذي يخشاه الجميع في الحيِّ. لا أثر لساكنه في الخارج، الباب الخشبي يبدو مُغلَقًا، لكنه قد يكون مفتوحًا أيضًا. يتابع المكان، نباتات الوذينة، شجرة ليمون «شفشي» في منتصف الجِنان، الحشيش النَّجمي ينتشر في المكان، وبعض النباتات الطفيلية الأخرى بسِلِّها. والحارس؟ لا بُدَّ أن يكون في المكان. يمسك الفتى بحجارة الجدار ويتنفَّس بسرعة، ينظر ناحية الباب الحديدي ليتأكَّد أن القفل لا يعمل، وأنَّ كلَّ ما عليه للخروج هو تمرير المتراس ليفتح الباب، يصيح فيه الفتيان في الأسفل: «اقفز أيَّتها الفتاة». تصطكُّ أسنانه، يجد بخربشة أصابعه على السور حجرًا صغيرًا، يرمي به حيث الباب الخشبي؛ حتى يصنع قرقعةً في المكان. يشاهد ارتداد الحَجَر دون أية حركة، يقفز، يُسرِع ناحية الكرة. يسمع حركة في الأجواء. يشعر بوخز في ساقه، ينزع السِّلَّ النَّجميَّ الذي التصق به. يحكُّ ساقه، يركل الكرة.

يتجمَّد. يبحث في المكان، يشعر بالتجمُّد رغم رغبته في الحركة، يسمع الحركة مرة أخرى. يرى الباب الحديدي بعيدًا، رغم قُربه قابَ قوسين، يرى الباب الخشبي قريبًا رغم بُعدِه بُعدَ الكُفرة عن شارع الشاحنة الحمراء. يتصبَّب عَرَقُه، يرى نفسه يسرع إلى الباب رغم تجمُّده تحت شجرة النخيل: وأخيرًا يتمكَّن من التحرُّك عندما يشاهد ظِلًّا تحت إحدى الشجيرات البعيدة، كما يسمع صوت سلاسل حديدية تنشد، وغرغرة. فَزِع، يقترب من الباب الحديدي، يُمرِّر المتراس، يفتح الباب. ويسمع حشرجةً خلفه ليغلق الباب. يقسم ألَّا يعود للقفز إلى البيت مرَّةً أخرى.

(4)

في الليل، ليل السِّلْم بعيدًا عن الصحراء. كان صوت كلب وحيد يعوي في المكان الذي لا تجوبه الكلاب.

في ليل الحرب. لم تكن هناك كلابٌ في الجوار، لا شيء. لم يكن أحد يسمع في الخَلاء الذي يحيط بهم شيئًا سوى الريح، وعويل الجِنّ، ربما. كانت كل ليلة تشهد حالةَ قَبضٍ على مُجنَّدين يحاولون الهروب، قد أفلح هو في جعل الحُرَّاس يأخذون عملهم بجدية. في أحد الصَّباحات كان يقيم التَّمامَ اليوميَّ كما هي عادته، فلَحِظَ اختفاء جنود من المعسكر، أنزل بالحراس عقابًا جعلهم يرهبونه. صوَّب مسدسه في رؤوسهم جميعًا، وقتلهم واحِدًا تلوَ الآخر، ثم خطب في الجنود أن هذا ما سيكون عليه حال الحراس الذين يتراخون في عملهم. لكن ذلك لم يوقف الراغبين في الهرب؛ فقد كان الهربُ مَسلَكَهم الوحيد من الموت؛ إمَّا الهرب من الموت، أو الموت هربًا، أو فقط محاولة النجاح في هروبهم من كل ما كان ينتظرهم: مذهبٌ يعتقدونه. كان يشاهدهم يرتعدون في سراويلهم. يبكون. يصرخون مناشدين أمهاتهم. كانت أوامره تُلقَى عليه بالتقدُّم فقط، لم يأتِ له أي إذنٍ بالرجوع أو التقهقر؛ لذا فقد رمى بجُثَثهم في الصحراء. سمَّاه الجنودُ «الوحش»؛ فقط لأنه لم يُبدِ رحمةً تجاههم. يتَّصل به القائد «لا تقَهقُر... إلى الأمام... إلى الأمام»، يجيب بثقة: «حاضر سيدي». يغلق السماعة. تمرُّ بذاكرته حوادث الهروب وعصيان الأوامر التي كان يجابهها بكل حزم. يخرج من قمرته، يجمع الجنود للتمام الصباحي بثقة أنَّ حُرَّاسه قد تعلَّموا درسهم، رؤوس بعض من الفاشلين في الهرب في ساحة المعسكر مطأطأة، مُكبَّلين، وزُكَبهم تحتكُّ بالأرضية الحارة الخشنة لم تستَرِح منذ بداية الفجر. العرق، الدموع، حشرجة الصدور، الخوف، الموت يدغدغ مشاعرهم: سبعة، ثامنهم كان ابنَ قبيلته –كانت الروابط القَبَليَّة عند قبيلته مثل أخٍ لأخيه، أب لابنه–، مضى في إعدام كافَّة رفاقه وجعَلَه آخرهم ليشاهدهم يسقطون ورصاصة في مؤخِّرة رؤوسهم. كان الفتى قد انهار من البكاء: «أرجوك يا عمَّاه. دعني أعود لأمي»، ضغط بالمسدس أكثر ناحية مؤخِّرة رأسه وقال له: «قُل سيدي... يا كلب»، يتدارك الفتى نفسه: «سيدي... رجاءً... دع....»، ويضغط على الزناد ليرى دمه يتدفَّق من الخلف إلى الأرضية الحارَّة.

ولكن ها هو ذا... بشيء من القلق، يبدِّل قميصه الذي لم يكن ليخطئ في ارتدائه قبل الآن ليرتدي قميصًا آخر. يشاهد صورته في انعكاس مرآة غرفة نومه التي لم يَعتَد على وجودها بهذا الحضور من قبل فترتعش يداه، يرتدي چاكتَّته، لاحظ أنَّ دبُّوسًا قد سقط منها، حاول وإصبعه يرتعش إعادة الدبوس على صدره دون فائدة، وضع الدبوس على الطاولة،

فتح الخزانة الخشبية تحت المرآة، كانت ثلاجة صغيرة تقبع داخلها، فتح الثلاجة، وجد قنّينته البلاستيكية، تجرَّع كمية كبيرة منها. حسبَ أنه قد خلق الجندي المثالي، ربَّاه ودرَّبه وعلَّمه وأدَّبَه وصقله كما يطمح. لم يلتفت لأمه، لطالما كانت الأم عائقًا تجاهه؛ لذا فقد عاش معه وحيدًا، وحرمها حتى حقَّ رؤيته، لا يضعف الجنديُّ إلَّا تِجاهَ الأمّ. كل الجنود يتقهقرون عندما يتذكَّرون أمهاتهم؛ لذا فقد قطع ذلك الحبل منه. كان مشروعَه الخاص، لم يسمح لأحدٍ غيره أن يزرع ارتباطًا به أقوى وأشدَّ من ارتباطه به.

– إن كنتَ تريد صناعة جندي منضبط عليك أن تفكَّ رباطه من أمه. تذكَّر ما قاله لصديقه وهما يتحرَّران من تعب نهارات الحرب، مُنغَمِسَيْن في لياليها المليئة بالبرد الممزوج بالدفءِ داخل أجسادهما.

– إن ولَدَت لكَ زوجتُكَ ابنًا، هل ستربيه ليصبح جنديًّا؟ قال له صديقه وقد تورَّد خَدَّاه.

– قد أفعل ذلك. قال. لم يكن يفكِّر أبدًا بهذه اللحظة.

– إذًا سيكون عليك أن تُبعِدَه عن أمِّه... زوجَتِك.

– سيتعيَّن عليَّ ذلك فِعلًا. قال بثقة السكران.

– كان الروسيون يُبعِدون جراءهم عن أُمَّهاتهم ويُرضعون الجِراءَ من مُرضِعاتٍ بلاستيكية؛ ليكون الكلب وليًّا فقط لهم. احفظ هذا عندما تصبح مدرِّبَ الكلاب. قال صديقه.

– سيتعيَّن عليَّ إذًا أن أُبعِد وليدي عن ثدي أُمِّه حالما تنجبه. قال له في تَهكُّم.

– الأبناء ليسوا كالكلاب يا صديقي. قال له.

– هم مثلهم إن كانوا سيصبحون جنودًا. ربما علينا فِعلًا أن نفكِّر في الأمر. نُربِّي جيشنا منذ أن يخرج من رحم أمه بعيدًا عن كل مظاهر المدنيَّة، وداخل أساور المعسكر. قال كمن يطرح أطروحةً فلسفيَّةً جديدة بجدٍّ.

– هاهاهاهاهاها... سيكون لديك جيش من الأطفال. قال صديقه الذي اعتاد على ضحكاته خلف سِحر الكُفرة السريع.

– إنَّ جيشنا من الأطفال حقًّا. ما دُمنا ندرِّب فتيانا في عمر الثانية عشرة والخامسة عشرة وبعضهم لم يَرِم مَنيَّه بعدُ. لِمَ لا نُدرِّب أطفالًا في عمر اليوم واليومين؟ طرح سؤاله وتجشَّأ كُفرَته.

– الشيوعيون أكلوا دماغك يا صديقي. صدِّقني... هاهاهاهاهاها.

أمَّا الوليد فظلَّ كالأسطورة. لم يكن في بدءِ حياته بمستطاع أحدٍ رؤيته، كان لا يغادر مكانه إلا بأوامر آمِر البيت. لم يلعب. لم يأكل. وقد لا يتنفَّس إلَّا بأمر الآمِر، «الحارس». كان يمكنه من سقف البيت فقط أن يرى الأطفال يلعبون كرة القدم، تَلِجُ الكرةُ عبر السُّور فيشاهدها تتدحرج حتى تتوقَّف ليتقدم أحدُ الفِتيان قافِزًا بحَذرٍ يركلها مُجدَّدًا خارجه، ويجري هارِبًا من الباحة كأنها مسرح جريمة عليه أن يغادره. كانت تلك اللحظات مُتنفَّسَه الوحيد: أن يشاهد الأطفال يلعبون.

(6)

أمَّا الحارس فظلَّ كابوسًا. لم يجعله صاحِبُه يرى أحدًا طيلة أيامه الأولى. لا يغادر مكانه إلا بأوامر سيِّدِه. لم يلعب. لم يأكل إلا بالأوامر التي علَّمَها إيَّاه. كان يمكنه من بيته أن يرى تَدَحرُج الكرة فيخرج مُزَمجِرًا، مُعلِنًا عن وجوده في المكان؛ فتبقى الكرة هناك دون أن يتجرَّأ أحدٌ على إخراجها من المكان، يبقى حارِسًا إيَّاها. يقف... يُحدِّق فيها كتحديقه في قنبلة، ولا يتجرَّأ على لمسها.

(7)

كان «الحارس» يستخدم أسلوب التدريب ذاته. يحوِّل عقابه على عصيان الأوامر أو عدم تنفيذها أو العجز عن ذلك إلى عقابٍ نَفسيٍّ، إلى جسديٍّ. لم تكن تأخذه الرأفة تجاه جنديِّه المثالي، كل شيء يتركَّز في الحركات، في الملامح التي يرسمها في قلبه. يشاهد طيف أُمِّه في عينيه، فيحاول مسحه. تمرُّ صور الحرب والخوف والرعب والجنود الذين لا يملؤون حتى بِدَلهم، يتغوَّطون في سراويلهم، فيقسو على جُنديِّه، وليدِه، الحارس الجديد- أكثر وأكثر.

لم يكن يسمح لأحد بالاقتراب من وليده، إلا بإذنه؛ لذا لم يتلقَّ تعليمًا غير تعليمه قبل أن يصل التاسعة، وزاد فقدانه له بعد أن أُجبِرَ على التقاعُد، فقد وصل إلى القائد بأنه قد قتل أحد أبناء عمومته تنفيذًا للأوامر. عرف القائد مدى خطورته فلم يُقرِّبه منه أكثرَ، ولم يجعله يبتعد. وكان ذلك وقت تخلَّى فيه القائد عن بدلته العسكرية وارتدى عباءة القبيلة، أمره بترك الجيش، وألَّا يعود إلَّا عندما يطلبه، كما أن القرار الذي اتَّخذه رغمًا عنه في تمكينه من الالتحاق بالمدرسة على مضضٍ بعد ضغط من والده جعله ينفلت أكثر من عقاله. كان وليده متأخِّرًا في الدراسة، لم يخرج قبل ذلك من البيت إلَّا إلى بيت جَدِّه، والآن ينفتح الشارع أمامه. حاول الأطفال أن يجعلوه يشاركهم اللعب إلا أنه كان متمنِّعًا ضد هَيَجانهم، لم يكن يهمُّه سوى الدراسة، في المدرسة يجلس وحيدًا وبعيدًا في آخر صفٍّ، كشَبَح، لا يحادث أحدًا. ينهي حِصَصه ويعود للبيت لبدء حِصَصه التالية. درجاته الدراسية كانت أعلى من الآخرين دائمًا. عَزَا الأطفال ذلك لكونه يسبقهم عُمرًا؛ فأكبر زملائه كان يصغره بعامين.

لم يكن يسمح لأحد بالاقتراب من وليده، إلَّا بإذنه؛ لذا... كان شَرِسًا، مُخيفًا، وغريبًا.

كان البيت الذي يلتصق بالشاحنة الحمراء لُغزًا يحيّر كلَّ مَن في الحي. النباح والصياح العسكري الذي يعلو داخله كانا وحدهما ما ينبع من عتباته، سوى الكرات الهاربة. حادثة واحدة جعلت البيت يتكشَّف قليلًا لأهل الحيّ: استيقظوا ذات صباح على صياح أحدهم يبكي ويستنجد الناس لإنقاذه. تتبَّع الناسُ الصَّوتَ فقادهم إلى بيت «الحارس». تسلَّق الفتى الذي اعتاد دائمًا أن يتسلَّق السور لينقذ الكرة من مخالب الوحش فوجد رجلًا يجلس القرفصاء في الباحة أمام البيت. كان الذئب يقف أمامه دون أن يُمكِّنه من الحراك، كان الرجلُ لِصًّا قد غرَّته نفسه بعد أن سمع بأن البيت ينساه أصحابه لأيام؛ فأغوته لسرقته. لم يكن الرجل قد أُوذِيَ. كان الوحش لا يقوم بأيَّة حركات هجومية دون إذن «الحارس»، لكن لم يتمكَّن أحدٌ من إنقاذ اللص المقرفص أمام الوحش. بقي هكذا، لثلاثة أيام، حتى عاد صاحبه ليعاقب اللِّصَّ عقابًا وخيمًا. كان الوحش بلونه البُنّيّ وعينيه السوداويْن... يثير الرغبة في التَّبوُّل.

لكن كل ما حدث في الشارع وفي المعسكر لم يثنِ «الحارس» عن متابعة هدفه، كان يؤمن أنه إذا نجح في هذه المحاولة سيكون قد أثبت جدارته للقائد. تقدَّم مرةً أخرى نحو الممرِّ المؤدِّي للجِنان، واستدرك الأمر الذي تلقَّاه:

– اعدِمْه.

(8)

وَلجَ بيت الوحش. وجده يرقد مرتاحًا، واضِعًا رأسه على مقدِّمتيْه بعد وجبة دجاج جيدة؛ تقديرًا لما أظهره في التمارين. كان الوحش دائمًا ما يتغلَّب عليه في التمارين الجسدية. تذاكر تمرين الصباح. العصا تضربه واليد تربِّت على الوحش. الوليد والوليد. اشتمَّ الوليد رائحة الدخيل فكشَّر عن أنيابه، تفَرَّس الإنسانَ الذي أمامه. مدَّ الوليدُ يدَه للأغلال التي تربط الوحش. مرَّر أصابعه على رأسه، شعر بالألفة تِجاهه. وضع يده تحت فمه فأخرج لسانه. كان الاثنان لأول مرة يلعبان في حياتهما. لعق الوليدُ وجهَ الدخيل، وربَّت الوليد على رأس الوحش. مسح على رقبته حيث فروه يتكثَّف. بدا الوحش سعيدًا. مدَّ يده ناحية مربطِه وفكَّ القفل وأمسك السلسلة وأخرجه من بيته؛ فازدادت قبضتُه تَحكُّمًا به، وواتته رغبةٌ في أن يطلق سراحه، ففعل. جرى الوحش في الجِنان يلعب، ثم عاد مُجدَّدًا، كانت هناك كرة قدم رماها الأطفال دون العودة لها مجدَّدًا. تقدَّم نحوها وركلها ليجري الوحش وراءها، انتشى، امتزجا معًا، كأنهما شخصٌ واحد أو وحشٌ واحد. احتضنه ونزع عنه الوثاق الذي يشدُّ سلسلته؛ فشعر الوحش بحرية لم يَعتَدْها من قبل. لم يكن صاحبه لينزع عنه الوثاق رغم نزعه للسلسلة. تحرَّكا نحو الباب الحديدي، في يده الكرة، وحول جسده يدور الوحش. الشارع الذي لا تجوبه الكلاب. خرَجَا ليحتضناه وليتحرَّرَا من الرجل الذي يقودهما بأوامره الاستعبادية.

كانت تلك الحادثة تبدو كأنها مسرحية مفتعَلة.

(9)

ولجوا صدره. أخيرًا. لم يتمكَّن أحدٌ قبلهم أن يَلِجَ صدرَه، في المعسكر تعرَّفوا عليه واكتشفوا قدرته الجسدية. تمكَّنوا من الوصول إليه بعد أن عرفوا قصته. كان والده أحدَ الضُّبَّاط المقرَّبين للقائد، «الحارس» كانوا يطلقون عليه. تربَّى في حياته في البدء بين معسكر البيت والمدرسة. تقدَّمَت به الحياة بعد ذلك ليتربَّى في المسجد ثم ليعود لمعسكر الوطن مرةً أخرى تنفيذًا لأوامر والده. كان يتملَّكه الوحش داخله، يمسك بقلبه كأنه طوقه. قرَّروا أن يُدخلوه لجماعتهم، وقرَّروا أن يُنفِّذوا عملية الحرية ضد الرجل الذي يقودهم بأوامره إلى العبودية.

كانت تلك الحادثة أيضًا تبدو كأنها مسرحية مُفتعَلة.

(10)

وجدا الفتى الذي اعتاد على أن يقفز البيت، رآهما فانخضَّ قلبه، رمى الكرة نحوه فتدحرجت تحت قدميه ليتجمَّد، كان يرى الوحش والوحش يحدِّقان فيه بتلهُّف، كانت الكرة لا زالت تربّت تحته، نزل من ساقيْه سائلٌ أصفر، شعر بحرارة جسده فتحرَّكَت قدماه، لَحِقاه. حاول الفتى أن يهرب لما رأى لأول مرة الوحش يقوده الوحش. ابتسم الفتى وكشَّر الوحش عن أسنانه يعتقد أنه يلعب. «انتَشِلْه». قال. جرى الفتى ولم يجد سوى الشاحنة الحمراء يحتمي بها، ركب فوق صندوق القيادة، لكن الوحش استطاع القفز. مزَّق ساقه؛ فصرخ؛ فسقطت بعضٌ من قطرات قدمه على ورق الخروع. سَرَت لَذَّةٌ في جسد الوليد. استمتع باللعب، كان الفتى يبكي مستَنجِدًا الناس، ولأن الشارع كان صغيرًا، وسُكَّانه قلائل؛ سَرَت الحُمَّى بسرعة داخله. جرى هو والوحش في نواحي الشارع ليدخل البيوت ويطارد ساكنيها. «أَمسِكْ ذلك». «طارِدْ المرأة». «حاصِرْه». «مَزِّق قدمها»... يلقي بالأوامر، والناس تصيح وتصرخ، والحُمَّى تُسرع. الوحش يخرج سعيره. وهو يقهقه. الهلع الهلع. دخل بيتًا فأقفل الناس غرفهم فيه. طارد أناسًا آخرين لبيوت ناس آخرين. انتهكا أسرار كل البيوت التي حاوَلَت انتهاك أسرار بيتهم. لساعة كاملة ظلَّ السُّعار يحوم في الشارع. «تبوَّلْ هنا». «تَبرَّز هناك». «عُضَّه». المطاردة التي تبدو كمسرحية ظلَّت تسوق أهل الشارع. بعضهم تسلَّق النخيل. بعضهم أغلق على نفسه. بعضهم لم يغادر سيارته. النساء يخرجن سافِراتٍ إلى الشارع. الأطفال يبكون خوفًا ويختبئون في خزانات الملابس أو تحت الأَسِرَّة وفي فصول المدرسة التي وصَلَت إليها المطارَدة. الرجال يبحثون عن أسلحةٍ أو هراوات لتوقِف المطاردة الهوجاء، وهو يستمتع بالمشاهد التي يرسمها الوحش في وجوه الناس وأجسادهم. أصيب عشرة بجروحٍ مختلفة في أجسادهم حتى جاء أمرٌ ما في الهواء:

– حارس. توقَّفْ.

يتوقَّف الوحش. يتوقَّف الصياح والعويل والهلع. يتوقَّف المشهد.

– اعدِمْه.

– اتركه لله.

جاءته الأوامر من كل السُّلطات المحيطة به.

(11)

احتَضَن بندقيته. استعاد رباطة جأشه. ربَّت أحدُ الرفاق على كتفه. سنوات منذ أن أحضروه في جنبات الله، والآن قد استعدَّ لملاقاته. كل ما تعلَّمه ينصبُّ في هذا اليوم، حتى تمرينات وتدريبات والده. الامتحان الحقيقي لسنوات طويلة من التدريب. الانضباط. إطاعة الأوامر. تذكَّر ذلك اليوم الذي عُنِّف فيه. لما رآه يصطحب صديقًا له إلى غرفته. لما انهارت سُلطَتُه وخرَّت أحلامه وطموحاته في صنع الجندي المثالي. كانا لا يتعدَّيان العشرين من العمر. صديقه صاحب اللحية الشَّعثاء والشارب الحليق. جلابية بيضاء تعلو كَعبيْه بإصبعين ملتصقتين في وضعٍ جانبي. أمره بعد أن ودَّع صديقه» هذه آخر مرة أراك تصاحب هؤلاء». نفَّذ الأوامر، كان ذلك الزمن زمنَ كراهية الكلاب الضالة والكلاب الأُخَر، ولم يسمح أبدًا أن تجوب الكلاب المكان. بعد ذلك بأيام قال له: «ستذهب للعسكرية. حَضِّر نفسك». كان يطيع أوامره.

يمسك بالوحش، يدغدغ فروه. دم بشري يقطر من أسنانه.

يطقطق أصابعه على البندقية، السبابة، الوسطى، السَّبَّابة فالوسطى. «الآن... حان الوقت». ركب الشاحنة، كانت تشبه الشاحنة الحمراء التي تركن أمام بيتهم. بحث عن شجرة خروع ملتصقة بها ولم يجدها. كانت الشاحنة تسير في ظل الغروب، حمراء، فاقعٌ لونها رغم بياض طلائها. أخذت الطريق تنسكب في الأفق أمامهم حتى وصلوا إلى مبتغاهم، حيث سينفذون الأوامر التي أُلقِيَت على مسامعهم. انفرطوا عند وصولهم لمكانهم كثمار الخروع. حفل يحضره أحد رفاق القائد الأحرار، وحش آخر قتَل من إخوانهم الكثيرين. انطلق الرصاص يتوجَّه في كل مكان أرادوه. سقط أحدهم. وسقط أحد آخر من الجهة المقابلة. النار بالنار، وجَّه بندقيته في الهدف الرئيسي. كاد أن يُرديَه أرضًا لولا احتشاد حُرَّاسه حوله وإصابة أحدهم. تذكَّر والده... بشدَّة. صاح أحدهم بشعار الله، ووَلَّت الشاحنة تحملهم تنطلق في الطريق تجري خلفها سيارات الدفع الرباعي. وهو يجلس في الصندوق الخلفي يفكِّر في والده. كيف كان يطيع الأوامر. كيف استطاع هو إطاعته. لم تدمع عيناه القاسيتان. مضت المطاردة لساعاتٍ حتى تمكَّنوا منهم. عرفوهم واحدًا واحدًا. سمع صوتًا يُوجِّه البندقية نحوه:

– يا حارس... توقَّف.

(12)

في الحرب تذَكَّر «الحارس» آخرَ العمليات التي جعلته يتقهقهر لأول مرة. الجنود ينفرطون من الميدان كثمار الخروع، بعضهم قتلى، أصيب في ذراعه لكنه ظلَّ يقاتل حتى آخر اللحظات، في كل اتجاهٍ يقاتل العدوَّ ويقاتل الهاربين من أرض المعركة، وجَّه جُندَه عند نقصان عددهم المتزايد في النهاية السلاح نحوه وأمروه: «فلنعُد سيدي...». صاح: «أيُّها الخَوَنة، سأعمل على إعدامكم جميعًا». قام صديقه الذي يشاركه الحرب بتوجيه رصاصة أدرَكَت ذراعه الأخرى؛ فانهارت قواه لما

صار ككيس ماءٍ مَثقوبٍ يخرج منه الدم من جميع الجهات. نجا بأعجوبة، جرجر صديقه جسده طيلة الطريق كان يستيقظ ليسمعه يقول له: «أعتذر... ولكن كُنَّا سنموت للا شيء».

– اعدِمْه.

– اتركه لله.

أمروه؛ لذلك أخذ بندقيته التي وضعها على الحائط تحت صورته ووليده، مرَّت لحظات طفولته معه: كان يلعب على ساعده الذي يشعر بضعفه الآن. لحظات تَلَألُئ عينيه في قلبه. لحظات طفولة الكائنات جميعها حيث تفطر القلب، يغذيه. مداعبة الوليد لإصابته. تدريبه له وتحويله لوحش لا يعرفه ولا يعرف منه إلا الأوامر. يخرج إلى الجِنان، كان هناك. ينتظره. صوَّب بندقيته لرأسه، الجمع ينتظرون. كأنه مرَّ بذات المشهد ذات يوم. متى كان ذلك؟ يستعدُّ لتنفيذ الأوامر. «استَعِدّ»، أمره فاستعَدَّ. ألصق البندقية لفروة رأسه، بنيته التي شكَّلها، التشابه العميق بينهما رغم كل الاختلاف، الجمع يتحلَّقون حوله. إنه ابنه، أو يكاد يكون كذلك. يطلق رصاصته. دم يخرج من فروة الرأس. تربّت يدُ صديقٍ قائلًا:

– كلب ومات.

الحمامات 2017

---

* الكُفرة: مدينة ليبية، تُسمَّى عليها إحدى وحدات قياس البوخة الليبية.

هيمنجواي ليبيًّا

لم تجد ذلك في الكتب...

وجدت ذلك في شفرة رازور رقم 8623015 من أمر التصنيع، وجدَته في الإحساس الخدِر الذي تتركه آخرُ قطرات الدم من المقطع الرأسي لوريد يدها اليسرى، أتقَنَت دائمًا البحث عن مكان تدفُّق الدم من القلب إلى اليد، كانت عندما تنهار تضع إبهام يدها اليمنى تتبع نبضَ الدم في يدها اليسرى، تَتمالَك ارتعاشها... تتمالك نظرها نحو الشفرة المحفوظة بصندوق خشبيٍّ وجدَتَه مُلقًى في خزانة والدها، تسمع إلى أفكارها تتهامس: افعليها لا... لا يمكن، أنتِ امرأة قوية، هكذا علَّمَكِ هيمنجواي.

هكذا أسمته... هكذا أحبَّته... هكذا أرادته: هيمنجواي الخاص بها، الذي عاجِلًا أم آجِلًا سينتحر من أجل حبِّها هي، جيلهورن الجميلة، لكن شفرة الرازور لها حديث آخر.

سرَقَت الشفرة من مجموعة شفرات أخيها، كان ذقنه الذي يجتاحه رَملُ الشَّعر كلَّ ثلاثة أيام لا يتحمَّل لحمُه نحسَ الشَّعرِ له؛ فكان يحتفظ بمجموعة كبيرة من الشفرات يحلق بها ذقنه، أين هي شفراته؟ في صندوق مرآة الحمام، بالرَّفِّ الثاني، بجانب فرشاة ومعجون الحلاقة، تحته تقع أدوية لا تعرف لمن، وُجِدَت منذ الأزل، كالحياة... شريط من الورق يحفظ في كلِّ إنش شفرةَ حلاقة، قطعة رقيقة من المعدن بلونِه المعدنِي حُبِّرَ على سطحها كلمة RAZOR، حدَّقت فيها بلهفة، أرادت ذلك أيضًا.

المكتابتية، كانت معروفة لدى الجميع: زميلاتها، زملائها، عائلتها وقاطِني زوايا أزِقَّةِ حَيِّها من الشباب الذين كانوا يجرِّدونها من ملابسها قطعةً قطعةً بأعينهم... تمرُّ أمامهم حاملةً كتابًا لتحمي به صدرها أو فرجها من الأعين المتلذِّذة بسروال الچينز والقميص الورديِّ المزهَّرِ ببتلاتٍ حمراء تتوزَّع على مادته القطنيَّة، تعدُّ الخطوات مُنكِّسةً رأسها إلى عتبة منزلها. تمرُّ الطريق كاملةً تخشى من أقدامٍ قد تلاحقها... لطالما رسَمَت في ذهنها مشهد اغتصابٍ من الخلف، لكنها أيضًا... لم تفلح ولو لمرَّةٍ واحدة في الالتفات ولو بمقدارِ طرفة عينٍ إلى أن تُغلِق متراس باب المنزل خلفها، إلى –أيضًا– أن جاء هيمنجواي يحملها إلى أرضٍ لا رهاب فيها.

المكتابتية، كانت معروفةً لدى الجميع بهذا الاسم... تعمل مكتابتية رفقة دراستها، تقطنُ في إحدى الشوارع الخلفية المتفرِّعة من شارع البلدية، وُجِدَت عائلتها في الزقاق المليء بالهمسات، سعار البشر وحكايات القطط والقمامة، قاست الأمرَّين لتنال هذَيْن الحُقَّين؛ فهي وإن كانت تنتمي إلى أسرةٍ مثقفة ذات كتبٍ وذكريات في المحافل الثقافية إلَّا أنها أُسرَة

بسيطة الدخل، يصاحبها انتماؤها لهذه الأسرة أخٌ لا زالت تجري في دمائه عروق متعطِّشة لوأدِ البنات، لا زالت تيك العروق تتربَّص بتلك الفتاة التي هربت من مقصلة الوأد لتخوض حياة مليئة بالأعين المراقِبة، إنَّها في امتحان، وكلما تنجح في تخطِّيه تزداد تلك الأعين تربُّصًا... ستنجحين إذًا في الحياة بعد أول أنفاسكِ، سيتعيَّن عليكِ أن تنجحي في تخطِّي عقدة النقص التي ستلازمكِ حتى العشرين في كونكِ قد تضطرين بين يومٍ وليلة أن تتخلَّي عن حياتكِ العلمية، نجحتِ في ذلك أيضا؟ إذًا ماذا عن قدرتك على العمل صُحبةَ الدراسة سويًّا لتُخفِّفي عن والديك مصاريف المنزل؟ أمكنكِ ذلك إذًا، العين تزداد اتساعًا...العين تزداد قُربًا... العين تزداد احتجاجًا.

كان لها ذكرىً ما مع أخيها، تلك الذكرى التي تعود بها إلى أول يوم تلمس أصابعُها خشونةَ الشَّفرة، عندما دخل عليها غرفتها يجرجر شَعْرَ رأسها ويلقي بها إلى الأرض، لم تكن تتخيَّل أن تكون أرضيَّةُ غُرفَتها بهذه القسوة إلَّا عندما سقَطَت هنالك أوَّلَ مرَّة، ركلها... نعم، فعَل ذلك، شعرت بقدمه تنغرس كالسكين داخلها، كان يُزبِد ويُربِد بكلماتٍ لم تفهمها في البداية، لم تدرك ما الذي يفعله، وضعَت –لا إراديًّا– يديها على وجهها، حاولت وهو يضربها ويسبُّها أن تعرف ما الذي فعَلَته بالضبط، أحسَّت بيديه القاسيتين تمسكان بشعرها، كان لعابه كالرذاذ يلقى على وجهها وهو يصيح، لم تجرؤ أن تنظر في وجهه، أصبَحَت كلماته أكثر قوة في حضورها: «ذلك الفتى الذي تواعدينه في الزقاق، إنه يحكي قصَّةَ قبلاتكِ الغرامية معه لجميع شباب الشارع أيتها السافلة، وأنا آخِرُ مَن يعلم. عليكِ اللعنة، يجب أن تموتي...» كان يقول، أخذ رأسها وجرجره حتى المكتبة، حيث مجموعة الكتب الصغيرة التي جمعتها مع الوقت، ثم ضربها بالمصطبة، جعل خدَّها مضغوطًا على اللوح الخشبي، شعرت بالخشب يخونها، الخشب الذي لطالما جلَسَت عليه وهي تحاكي الفتى على الهاتف يرسل لها كلماته الحارة، الخشب الذي لطالما وضَعَت كرَّاساتها تكتب عن حبها له، الخشب الذي لطالما قرأت عليه يخونها مع أخيها، شعرت بالعالم يتهاوى، يجب أن يتهاوى العالم في هكذا مواقف؛ لا جدوى لحياتها إذا لم يفعل ذلك. شعرت به يُجَرجرها مرة ثانية، ولكن هذه المرة إلى مكان آخر، تحرَّك بها نحو النافذة، أخرج رأسها وقال لها: «المرَّة القادمة سأجعلك تسقطين من هذا الارتفاع»، أمسك بفكِّها وضغط عليه جيِّدًا حتى تستوعب كلماته النافثة، كانت الشقة تَبعُد مسافة أربعة أدوار على الأرض، رأت الأرضَ بعيدةً أكثرَ ممَّا يجب، لأوَّل مرَّة، ثم بُمْ. دفعها إلى زجاج النافذة، انغرس الزجاج في جبهتها، وانسال الدم، أنقذها اندفاع والدها... كان الرجل من أولئك الصحفيِّين القدامى الذين اختاروا العمل في وظيفةٍ على تَحمُّل أعباء الفُتات القليل الذي تلقيه الصُّحف عليهم لتغطية مصروفات العائلة، أمسك يد الفتى قبل أن يقتل أخته، ثم تركها وحيدةً في غرفتها تلتئم جراحها، بقيَت يومًا كاملًا في زاويتها ترتجف، تبكي، لا تعرف ماذا تفعل حتى خطر ذلك الخاطر في بالها: الشفرة. كانت تعرف قصة فتاة قد حاوَلَت الانتحار بابتلاع مجموعة من حبوب الدواء دفعةً واحدة، قرَّرَت أن تفعل مثلها.

لكن ذلك «كان زمان»، احتفظت بالموسى لتعود لها كلَّما شعَرَت بالعالم يتهاوى، لكن الآن... كانت تجيد رصف الكتب، كتب قد قرأَت جزءًا جيِّدًا منها، تضعها في الرف، تُمرِّر أصابعها على الأوراق، تُمرِّرها على الأغلفة... تُمرِّر بشغفٍ مخجِل، وهي تمرِّر أصابعها تمرُّ القصص والحكايات والأبطال وعشيقاتهم والبطلات وقصص عشقهن، أرادت ذلك... كان

عقلها يخبرها أن لا أحد، لا أحد أبدًا سيجعلها تشعر كأنها شخصية في كتاب، قلبها كان يخبرها أنَّ حتى الصبَّار يمكنه أن ينبت في الصحراء.

جاء هيمنجواي، ارتدى في إحدى الأضحيات رداء البدويّ، وفتح الباب الزجاجي للمكتبة التي تعمل بها، كانت ترصف الكتب كعادتها، تعيش في عالمها وحيدةً يكدِّرُ حُبَّها أحيانًا شيخٌ يبحث عن كتابٍ عتيق، فتاة تبحث عن قصة حبٍّ بين صفحات، أسماء وعناوين حفظتها، يتكرَّر العنوان أو الاسم نفسه مرتين أو ثلاثًا في اليوم، وتنظر هي في وجه الزبون بلطف، واضعةً كتابًا على صدرها أو على سروال الچينز بين الفخذَيْن بِيَدٍ، ومُؤشِّرةً بإصبعها باليد الأخرى ناحية الكتاب المطلوب:

«هناك... الصف الرابع، العامود الأول تحت لوحةِ تمثال الغزالة». الزاوية التي غالبًا ما توجد بها الكتب الأكثر طلبًا، فكرة جاءتها لتسهِّل عملية البحث عليها. جاء هيمنجواي، ارتدى البداوة وأطلَّ وجهه على جسدها الذي يتفحَّص الكتب... كانت تعلوه ابتسامة غريبة لم تتفهَّم مقصدها، ارتفعت نسبة الدم في وجنتيها واحمَرَّتَا، لقد عثر عليها في أكثرِ وضعيَّاتِ فتاة مثلها خجَلًا: مُقَرفِصةً تحت أحدِ الأرفف تبحث عن أفضلِ طريقة لترصف الشيخ والبحر، حيث تغرب الشمس، تُناشِده أن يقول وداعًا للسلاح.

– عفوًا، أريد كتابًا لحبيبتي.

– الصف الرابع، العامود الأول... تحت لوحةِ الغزالة. هنالك.

قالت تفكر أنَّ حبيبة صاحب الابتسامة الغريبة يجب أن يعجبها أحد الكتب الأكثر مبيعًا.

– ها ها ها ها، مشهد رائع.

– لم أفهم؟

– هذا الذي فعلتِه الآن... مشهد درامي رائع، هل عملتِ ممثِّلةً من قبل؟

– ...

«ما هذه الجرأة؟» حدَّثَت نفسها... ابتسامة غريبة لا يُعرَف كنهها، وجَرأة.

– اعذريني، أنا لا أقرأ الكتب... أريد كتابًا جيِّدًا يمكنه أن يجذب انتباه فتاةٍ ما فقط.

– حسنًا.

وفكَّرَت في كل الكتب التي يمكن أن تجذب انتباه فتاة، نَسِيَت نفسها، بحَثَت في قائمة الكتب المفضَّلة لديها: الشيخ والبحر، دون كيشوته، القلعة... كُتُب كهذه تحكي قصص أشخاص عاديين، واقعيين وساحرين بعيدًا عن ترَّهات تراها

تتناولها فتيات وطنها... مرَّت في بالها ألف قصة وقصة قد تقرؤها هي ولن تقرأها غيرها، قصصٌ قد تجذب انتباهها ولا تجذب انتباه أخرى، هيمنجواي... هيمنجواي، هيمنجواي، وجَدَت نفسها تتلقَّف الكتاب تلو الآخر للكاتب ذاته وتضعها بين يديه وهو ينظر إليها بابتسامته الغريبة... يُحدِّق في عينيها تمامًا دون أن يتفحَّص العناوين أو أغلفة الكتب، تجثو لتلتقط كتابًا من الرفوف السُّفلى فينظر إليها مبتسمًا، تقف على رؤوس أصابعها لتصل لآخر في أعلى رفٍّ ليتابعها... انفلت ضحكًا.

رأت نفسها تلقي إليه بالكتب المحبَّبة لها، أخذ الكتب جميعها، سألها وهو يدفع النقود: «اعذريني يا... آسف ما اسمك؟»، أرادت أن تقول له: «سَمِّني جيلهورن»، لكنها ذرَفَت باسمها تخرط بأظافرها خشب طاولة الكاشير أمامها، قال لها: «أرجو أن تعجبها». وألقى بالابتسامة التي جذبتَها، كأنه يسخر من خجلها، كانت كمن زاد إحراجها من كلمات توجَّب عليها هي لفظها: «أرجو أن تعجبها» وتلوكها باسِمةً.

يمكنك أن تعرف أن للموسى لذَّةً تعطيها لِلَّحم عندما تلامسه، عليك أن تعلم أنها عرفت ذلك؛ فقد جرَّبته أكثر من مرة... يدها مليئة بالخدوش، كانت مليئة بالرعب والموت، تظنُّها أنها تجفُّ، لكنها لم تجرِّب أبدًا أن تحاول الانتحار كُلِّيَّةً... مجرد خدوش تشعر بالألم المفزع بعدها، تلقي يدها قطعةَ المعدن ملطَّخة بدمٍ قليل، من باب الفضول جرَّبَتها تارةً... من باب حزنٍ لا مُبرَّر تارةً أخرى، أحسَّت ببرودة المعدن غير ذلك مرَّاتٍ عديدة... تمسك بالقطعة المعدنية وتبكي، تستلذ باسترجاع ذكرياتها الكثيرات، تلك الذكريات التي آلَمَتها والتي أحبَّتها... الوجوه التي ستشتاق لها، عرفت عندها أنها لا تريد أن تموت، كانت كأنها تُذكِّر نفسها أنها لا تريد أن تموت، هذه المرة... غير ذلك، هذه المرة بشدَّة أرادت الفكرة.

آه لو كان هيمنجواي ليبيًّا... آه لو كانت جيلهورن ليبيَّةً. أرادت أن تغنّي كلماتها.

لكنها عرفت أن منطقها خائب، راحت تجرجر يوم أن زارها أول مرة أذيال الخجل والخوف ككل مرَّة، تمرُّ أمام الأزِقَّة التي عرفت أعينها منحنيات جسدها وتضاريسه، تتحرَّك من شارع الوادي إلى شارع البلدية في حركةٍ شبه أفعوانية، تمضي بأحد الأزِقَّة بجانب مدرسة الفنون والصنائع، تقطع الشارع الذي اختلف الناس على تسميته وسط الوجوه العابرة والمتسوِّقة، تمتلكها بِرَك المدينة في الزقاق الصغير المشجَّر بين الاستقلال أو المقريف وشارع أول سبتمبر أو 24 ديسمبر، كما يحلو لك تسميتهما- كانت تعرف الأزِقَّة كلها لأنها اعتادت منذ طفولتها أن تلهث في المدينة بين المدرسة والمنزل مع أخيها، تمرُّ بجانب إحدى العيون التي يُشاع عن صاحبها أنه قد طلَّق زوجته بسبب لعبة الورق... كان يعتقد أن الرفيق الذي يجالسه قد غَشَّه، حلف أنه سيطلِّق امرأته إن لم يكن رفيقه كاذبًا، أراه الورقة المنشودة... كانت كما قال رفيقه، تمرُّ بشباب بينهم فتًى يخجل من إفصاحه عن حبِّه لها وعدم مقدِرَته عن التحدُّث إليها منذ طفولته فينعتها بالعاهرة، آخر كان يرى فيها جسَدًا جميلًا يستحق المضاجعة أو حتى الاغتصاب قد حقَّ عليه القول إنه لم يجرِّب المضاجعة يومًا لهذا يرى كل فتاةٍ غيرها كذلك، أحدهم صديق أخيها يحاول ألَّا يجعل عينيه وعينيها تلتقيان... زقاق تلو زقاق، يتلوهما الزقاق بالكثير من المتربِّصين، تحوَّل الجميع وحوشًا في ناظِرَيْها، الجميع مفترسون، إنها يمكنها أن ترى جسدها يكسوه الصوف... يمكنها أن

تشعر بالصوف يغزلها، بالأظلاف تخرج مقام الحذاء، يمكنها أن تتخيَّلهم ذئابًا جالسة على الكراسي، تدخِّن السجائر، تشرب القهوة، تلعق شواربها، تنتظر من الفريسة زلَّةً واحدة لتفترسها... ها هي الحَمَل، ها هم الذئاب، هكذا كانت نبضات قلبها وأفكارها تترجم مشاعرها.

لا تنسَيْ أن تضعي الكتاب بين فخذيْكِ. كانت إشارات يبعثها الجميع، سواءً حرصًا عليها، سواءً طمَعًا فيها... عقلها الباطن بات يخبرها دائمًا: لا تنسَيْ أن تضعي الكتاب بين فخذيْكِ.

تلت ذلك أيام؟ تلت ذلك أسابيع؟ لا يهمُّ الأمر، ما يهمُّ أن الوقت سحبها كعادته في طريقها المعتاد بين الكتب وشفرة الحلاقة رازور رقم 8623015 وردهات الكلية، في الكلية... تجلس وحيدةً، بعيدةً، لا أحد برفقتها... فتاة الكتب الغريبة، تجلس تقرأ قصَّتها المفضَّلة منذ الطفولة: الشيخ والبحر، تجلس هناك في درج الكلية اللوليّ، حيث الأقسام الدراسية، تجلس هناك في الدرج ذي عرضٍ بطول قدمها، في الطابق الثالث حيث قلة الأرجل المتحركة إلى أعلى جدًّا، تنسى المكان... تنسى أجرام الطلبة المتحرِّكة تحتها، تنسى الكتب والفتيات والمحاضرين ووجودها على بُعدِ ستةِ أمتار في درجٍ قديم لولبيٍّ، وتبحر صحبة الشيخ في رحلته لصيد سمكة القرش اللعينة الجميلة.

– لم يعجبها الكتاب الذي تقرئينه.

نظَرَت خلف الكتاب، وجدته ينظر إليها بعينيه الغريبتَيْن مبتسمًا. ضحكَت، لم تتمالك نفسها، ابتسم.

– هاهاهاها، مشهد رائع.

– نعم إنه كذلك... ولكن لا تخافي. ولكي لا يكون المشهد دراميًّا؛ إنني –وللحقيقة– أتتبعكِ منذ مدة، وقد سألتُ عنكِ العارفين في هذا الصرح، واستخلصتُ برنامجكِ اليومي واهتماماتكِ وما تحبِّينه؛ فعلمتُ أنَّكِ تحبين المرتفعات والكتب.

«ما هذه الجرأة؟» قالت لنفسها، لكنها لم تستطع أن تنطق بالكلمات في وجهه، نظرت إلى يدها، كانت ترتعش إلَّا قليلًا... حاوَلَت أن تقبض عليها وألَّا تجعل يدها تُحرِجها، نظرت إلى الكتاب، لم تتمالك أن تضع عينيها في مواجهة عينيه. قال لها:

– ولكن الكتاب أعجبني. نعم، ها هو أوَّل كتاب أقرؤه ويعجبني... لا بُدَّ أن بعض الكتب ممتعة على كل حال.

جالَسَها، تحدَّثا كثيرًا... نسِيَت ذاتها، شعرت به يكتب قصتها، ها هي تشعر بأنها غبية وهي تشرح له منطق القصة، ما الذي أراده هيمنجواي أن يوصله منها، ها هو يتفرج بابتسامته الغريبة... «تُرى: ماذا يخبِّئ وراءها؟» قالت، حاولت أن تبعد هذه الفكرة من دماغها لتركِّز في إتمام نقدها ورأيها في الكتاب، قصص حقيقية حدثت للكاتب وهو يكتب القصة، تمزج حياة الكاتب بالقصة بالنساء اللاتي أحبَّهنَّ، بكل شيء حوله: بأكلاته المفضَّلة، ببندقيته... قال لها: «أنا أيضًا لديَّ بندقية، تحملينها هكذا، ثم تطلقين الرصاص». أراها كيف يمكن لها أن تحمل بندقية الكلاشنكوف... «إذًا فأنتَ مثل

هيمنجواي، شارَكتَ في الثورة؟» سألته بذهول، قال ضاحِكًا: «نعم... رغم أنني لا أعرف مَن هو هذا الـ «هيمنجواي»»، ثم مضت تسأله عن شعوره في أن يكون قارئًا ومحاربًا في الوقت نفسه، أخبرها أنه قد بدأ بالفعل في أن يكتب شيئًا ما عن هذا، قال لها إن الكتاب الذي قرأه جعله فعلًا يريد أن يكتب وفعل، كان يحمل كرَّاسًا ما، وضعه بين يديها، وقال لها: «ها... اقرئي».

لاحِقًا، عادت من الأزِقَّة ذاتها، في القيلولة تحدِّق العيون ذاتها، لكنها لم تعُد كما تعود قبل ذلك، اختفت مخاوفها؛ إذ تفكِّر في ذلك الجريء الذي جالَسَته اليوم، الثائر صاحب البندقية والأسئلة الكثيرة حول شيخها المحبوب، تناست عيناها الأزِقَّة، وأَرْخَت العجلة لعضلاتها تقودها كما تعتاد إلى عتبات منزلها، أخذتها المشاهد... أخذتها صورته، كادت أن تتناسى أيضًا الكتاب بين الفخذَيْن، حتى أعادتها أصوات المترَبِّصين.

كيف يمكن لشفرة الحلاقة رازور أن يكون لها هذا السلطان عليها؟ وضعتها أمامها على الطاولة، وقفت تحدِّق بها... أمسَكَت الشفرة، لم يمضِ زمنٌ كانت فيه يداها ترتعشان بمجرد أن تضع الشفرة بين إصبعيها: السبَّابة والإبهام، هذه المرة يختلف الأمر... أحسَّت بنبضات قلبها، لم تتغير عن حالتها الطبيعية، هذه المرة قد صمَّمَت... لن تتراجع، تمرُّ في خاطرها صورة هيمنجواي يضع البندقية في فمه، آه لو كانت بندقيَّةٌ ما بحوزتها؛ لأَطلَقَت الرصاصات كما فعل.

عندما دخلت المنزل، أغلقت غرفتها، نظرت من شباك نافذتها إلى الزقاق الضَّيِّق، وتابعَت الوجوه بالأسفل، أغلقت البرسيانة*، ثم أخرَجَت الكَرَّاس من حقيبتها تتنفَّس باشتياق، كانت يدها ترتعش وهي تقرأ ما كُتِب في الكراس، كان شيئًا مليئًا بروحٍ ما داخله... نعم، لم يكن أجمل شيء قرأته، لكنها أحسَّت بأنه أصدق ما قد قرأته، كان صوته يتحرك بين أذنيها وهي تقرأ، تشعر به يتحدث عن مَشاهِد الدمار، القصص التي عاشها، الناس الذين عرفهم، شعرت بصدقه فيها، كانت تبتسم مع كل خطأ لغوي تراه، مع كل تلَعثُم في الإملاء، مع عدم قدرته على التعبير المناسب عمَّا يجول بخاطره، لكنها كانت تبتسم أكثر مع الكلمات المتدفِّقة منه.

جاءها بالمكتبة، أطَلَّ عليها من جديد.

– أريد كتابًا... من اختيارِكِ أنتِ.

– حسنًا.

قالت فَرِحَةً. تبحث عن كتاب آخر له.

كانت تبحث بين الكتب العديدة عندما شعرت بشيء يُلامِس جسدها، يدٍ تتحرَّك أسفل ظهرها، كانت تنزل ببطء شديد من ظهرها، مسحت بهدوءٍ جِذعَها الطريَّ... رسم أصابع يده على المؤخرة، جذبها إليه... أحسَّت بيديه تناديها، خَشِيَت في البداية، شعرت أنه قد يغتصبها أبناء الأزِقَّة الذين

يحلو لهم أن يتخيَّلوا أنفسهم أن يغفوا بين فخِذَيْها وهم يتلصَّصون على اللحم خلف سروالها الچينز، همَّت أن تمنعه... لكنَّها رأت ابتسامته الغريبة التي اطمأنَّت لها منذ البداية، ابتسامة هيمنجواي. صرخت داخلها، ها هو هيمنجواي ليبيا... ها هو، دعيه يُقبّلك، دعيه... دعيه. صرَخَت فتاة الكتب داخلها، أرخت عنها دفاعاتها التي نصَبَتها للجميع، لا تعرفه جيِّدًا بَعدُ، لكنها قبلته، تذكَّرَت ذلك الفتى في الزقاق وأخاها، انزعجت قليلًا، أبعدت الخاطر عنها وقبلته من جديد... لم تتحدث إليه تلك الأحاديث الطويلة حول الغرام وجماله أو متاعبه، لكنَّ شفتيْه مَرَّتا ببطءٍ بين شفتيْها، يداه شدَّت بإحكامِ تاجرٍ يُوثِق حزام الإبل عن بضاعته، لم يتبادل معها القصص عن يومه المتكرِّر، لكنها ذابت بين يديه، قطعة من الشوكلاة تذيبها حرارة اللحظة، تذكَّرَت أنها قد مرَّرَت الموسى على شفتيْها لتشعر بقدرتها على سفكِ دمها، الدم كان ينزل من شفتها السُّفلى إثر جرحٍ بحجم قِطعة سُكَّر صغير صنعه ضغطها الزائد على الشفرة رقم 8623015، شعرت بأسنانه مثلها تسلخ شفتيْها، يمصُّ دمها، تلك كانت فقط البداية.

عادت؟ لا ليس فعلًا، مرَّت بين العيون حالمة، لا ترشدها إلى الطريق إلَّا قدماها التي اعتادتا الطريق نفسه، يداها على العكس نسيتا الطريق، نسيتا قوانينه وآدابه، وأنَّه عليها أن تختار أي عضوٍ من جسدها عليها أن تستره بالكتاب هذا اليوم، كانت لا زالت تحتفظ بلسانه وطعم السجائر والقهوة تخدر شعورها بالمشاهدين، الذئاب التي من بين الأزِقَّة تلعكها بين أسنانها كما تظن، احتفت بنسيان ذاتها، بتجميدها لآخر جزء من شفتيْه بين شفَتيْها، نسيت أنها كما تظنُّ أيضًا مجرَّد حَمَلٍ ترقبه الذئاب، اصطدمت بجسد أخيها أمام الباب، أوه... إنَّه الكبش الحامي للقطيع، ألقى بنظرته في المكان، في الشارع... حدَّق فيها، في جسدها، في فرحتها المخبَّأة، كان كأنه يشتمُّ رائحة، أن يحدثه جسدها بسروال الچينز عن عدد الذئاب التي ستستمني حالِمةً بها، عن المخطِّطين... وأسوأ، عن الذين نجحوا في ثياب الخرفان أن يقنعوا النَّعجة الصغيرة، الحَمَل... أن تُرخي دفاعتها لهم.

لكن الشفرة أيضًا لها أحاديثها... سَمِعت قصصًا دائمًا عن فَتيات يفشلن في الانتحار، كانت تمرُّ بها هذه الأحاديث تصطنع عدم الاهتمام، لكن يجذبها أن تعرف الفتاة، أن تُفتِّش عن علامات الفشل بين يدَيْها، عن الشعور بالخزي والعار الذي يصنعه المحيطون، عن الشعور بالحزن والألم اللذين يتضخَّمان في جسدِ الفاشلة، هكذا سمَّتهنَّ لتُذكِّر نفسها أنها ستنجح عكسهن، قرأت عن الطريق الصحيحة التي يمكنك بها أن تنجح في الانتحار باستخدام الشفرة، الآن ستجربها... الآن يمرُّ هيمنجواي وبسمته، أخوها والحادثة الذي أحدثها في وجهها، الذئاب، الكتب... والجلسات الثقافية، والأحاديث عن الفاشلات.

في الكلية، فعلها معها مجدَّدًا... على الأدراج التي كانت تظن أنها عُزلَتُها لما كانت لها عُزلة، اغتال لحظات السكينة التي تسترقها من المحاضرات وأخيها وتعب العمل وأبناء الشوارع والجلسات الثقافية بصحبة الشيء الذي تحبُّ، بصحبة الكتب... اغتالها، وجدها تمسك بالكتاب تكاد تعانقه لما أخذه منها ليُطلَّ واقفًا أمامها تحدِّق في الهواء، ثم تبحث عن الذي قطع عنها سكينتها، ابتسمت... لم تستطع أن تغضب، كانت ابتسامته الأمريكية المشبعة بعَبَق الحرب الأهلية التي

يحلو لها أن تسمّيها «الأسبانية»، تخلط كل شيء بحياة ذلك الكاتب، خلطته هو أيضًا... مدَّ إليها مجموعةً من الأوراق، قال لها:

– اقرئي.

أخذت تقرأ، كانت عنوانًا لقصَّةٍ كتب تحتها اسمه، التهمت القصة بسرعة... ستَّ أوراق كانت، التهمتها جميعًا:

– يبدو أن الكتابة قد أعجبتك؟

سألته متعجّبة... كانت تطير من الفرحة والتعجُّب.

– هل أعجَبتكِ؟

– اممم...

وقبَّلها على الدَّرَج، قال لها متناسيًا القصة:

– أعرف مكانًا رائعًا، هل تريدين المجيء؟

فعلها معها هناك، لم يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق راحة في إحدى قاعات الكلية الفارغة التصقت ثيابها بثيابه، التمس مناطِقَ، واستشعر مناطِقَ، ومَدَّ يديه تحت الملابس يلمس لحمها، كانا على نافذة تبدو للوهلة البعيدة أن لا أحد يمكنه أن يشاهد مَن في المكان فيها، إلا أنها رأت جسدًا.

انتفَضَت منه، خافت... شعرت أن الجسد تحت النافذة يحدِّق فيها بعينيه، يتبيَّنها، هربت، الطريق إلى البيت كانت وعرة... كانت تلتفت كلَّ مرَّة للخلف تبحث عن صاحب الجسد الرقيب، هربت... أسرعت، تذكَّرَت طيلة الطريق حادِثةً أليمة مرَّت بها منذ زمن عندما كانت صغيرة، سيفعل بها مجدَّدًا ما فعله أول مرة، سيحطِّم رأسها على نافذة دارها كما فعل تلك المرة، عندما هاجمها حُبُّ المراهقة، سيفعلها... لا بُدَّ أن أخاها سيضربها مُجدَّدًا، إنه هو لا محالة.

نسيت جسدها، كانت ترتعش كسعف النخيل يواجه ريحًا عاتية.

ضغطت بالموسى على يدها، تتذكَّر كل شيء... وممَّا تذكَّرته: تلك المتعة، تلك اللَّذَّة التي أحسَّت بها عندما غاصت يداه في لحمها، يدا الكاتب اللتان تتشكَّلان ببطء، إنَّه يملك تجربة الكاتب، روح الكاتب، ولو لم يملك حتى الآن اللغة المناسبة له، لكنها يمكنها أن تجعل من ذلك حقيقة، أن تساعده في ذلك، وهي التي لطالما أحبَّت أن تحب كاتِبًا، أسقَطَت الموسى، وضعت يدها هناك في ذلك المكان، ومرَّرَت أصابعها كما فعل هو، شعرت بلذَّة، تخيَّلَته، تناست أخاها، قرَّرَت أنها ستعيش حتى ترى تلك اللحظة تتحقَّق.

لكنك يجب أن تعرف أنها –كغيرها– كانت تعيش في زاوية ضيّقة، يحرس خروجَها منها ذئابٌ، كلابُ حِراسة، خرفان القطيع، والوحوش التي تملأ أفكارها، كانت كغيرها أيضًا مليئةً بالبارانويا، الفوبيا، التوبيخ الذاتي، لم يكن بها شيء مميَّز سوى أنها شربت من عصير مُحرَّم في مكتبة والدها المنسية حتى جاءت هي، التهمت المعرفة وعرفت أنها لا تعيش الحياة التي يحكي هيمنجواي وغيره عنها، الحُب، المغامرة، الحرب، الحياة، التقاطُع بين الواقع والخيال... كل ذلك كان عبارة عن خيوط خياطة شُبِكَت مع بعضها البعض، فلا تعلم كيف تُرتِّبها أجمعين، كاذبٌ مَن يقول لك إنَّ الأمر واضح بالنسبة لها أو لغيرها، واضح وبسيط... عليها أن تدرس حتى يأتي فارس الأحلام مليئًا بالنقود، اللحم والقوانين العُرفيَّة التي لم تفهمها يومًا فيأخذها من المدرسة لفراش الزوجية، كانت أفكارها أكبر من ذلك... نعم، وكان لها أن تدرك أن عليها أن تجد لنفسها مَخرَجًا من تلك الزاوية الضيقة.

سحبها حبُّه من الشفرة رقم 8623015، أحبَّته، لم تعرف لماذا، لكنها أحبَّته... لم يكن ذلك الشخص الاعتيادي الذي يجب أن يحبه الجميع، شعرت أنه مثال جيِّد للكاتب غير المتكلِّف، المجنون، غريب الأطوار، الذي يبتسم لأحاديثها عن الثقافة، الفن، الحياة– دون أن ينبس بكلمة واحدة، كان مجهولًا بالكامل، لكنها شعرت أنها تعرفه جيدًا عندما قرأت له ما كتبه بخطه المرتاع، لم يكن يحدِّثها إلَّا عن الأسلحة، الرجال الذين عرفهم في الجبهة، الحياة هناك، الذباب، سهريات المكرونة، اللحظات التي كان يسرقها للاستحمام، الأشياء التي صادفها وأحلام ومخاوف كانت تقضُّ مضجعه، كان عقلها يقول لها أن تبتعد، لكن قلبها كان يشعر بالاطمئنان، كانت تكره تلك الطبقة المثقفة التي تحتلُّ البلاد، لم تحبهم يومًا، شعرت دائمًا أنهم مُزيَّفون، عداه هو، حصيلة كتبه التي قرأها لم تكن سوى تلك التي أعطتها له، لكنه كان نَهِمًا في قراءتها، نَهِمًا في التعبير عن نفسه في الورق، نَهِمًا في النظر نحوها مُبتَسِمًا دون أن يتحدث، كان الوقت يجعلها أكثر قُربًا منه، نسيت خوفها والبارانويا فقط لما كان يأخذها هارِبَيْن من أسوار الكلية إلى المدينة، حيث المقاهي البعيدة عن الظهرة، الدهماني أو التكوين الإيطالي، كانا يقفان أمام بحر حيّ الأندلس، هناك بالقرب من خرابات رابطة الأدباء والمثقفين والكلاب، والبحر يلتطم بأحجار قرقارش، ثم يركبان السيارة مرَّةً أخرى مُتَّجِهَيْن إلى الكلية في الشوارع المنسية من الناس، يسترقان قبلةً أو لعبةً في الطريق.

كانت تراه أكثر من منزلها عندما تعود للعمل في المكتبة في شارع البلدية، كانت المكتبة لصديق والدها، أحد المثقَّفين الذي كانت تأتي ووالدها وهي صغيرة لزيارته في المكتبة التي ورثها من أبيه، تتوه في الكتب ويتوه وأبوها في الأحاديث الثقافية، أصبحت هي تتوه والرجل العجوز في الأحاديث الثقافية حتى يخرج الرجل للمقهى، في ذلك الوقت بالذات كان هيمنجواي يأتي، في آخر أنفاس القيلولة حيث تفتر حركة الأرجُل، يمارسان الحُبَّ بين الأرفف ثم تعطيه كتابًا ليقرأه من بين الكتب، لكنهما لم يمارسا الحُبَّ كاملًا، كان يُلِحُّ عليها أن تفعل... كان شيء داخلها يريد ذلك، لكنها لم تفعل.

تناست المجتمع الذي يحيط بها، تناست أخاها، تناست أبناء الأزِقَّة المترقِّبين لافتراسها، تناست كل شيء حولها، حتى الشفرة رازور 8623015 نسيتها، لم يَعُد شيء يهم في حياتها غيره هو، مزَّقَت واقعها ووقعت في الحلم اللذيذ للحب،

شعرت أنها لم تعُد مُحتَجَزة في الزاوية الضيقة، وأنها هربت، أنه أبعد كل الوحوش الحارسة في الزاوية وأخرجها لترى المدينة كما لم ترها من قبل، لترى نفسها كما لم ترها من قبل.

لم يكن هنالك شيء يمكنه أن يُعكِّر ذلك الصفو والتناغم والأدرينالين في جسدها سوى تلك الرغبة المِلحَّة له، ولحُسن الحظِّ فقد كان العجوز صاحب المكتبة الذي يُصاحِبها في معظم وقتها يعاني بين الفَيْنَة والأخرى وعكةً صحية، كان عليها أن تعتني بالمكتبة لوحدها في فترة مرضه، اتَّصل بها صباحًا وقال لها بصوتٍ كأنه يخرج من الماء:

– لن آتي اليوم، لا أشعر بتحسُّن.

دعت له بالصحة وأن ينهض بسلام، قفزت فكرة واحدة داخلها في تلك اللحظة، يجب عليها أن تتَّصِل بهيمنجواي وأن تخبره أنها جاهزة اليوم، لم تخف من أن يقتحم زبونٌ ما عليها المكتبة، مَن يقرأ في هذه البلاد بأيَّةِ حال؟ كان زبائن المكتبة قلائل؛ فلم تكن تلك المكتبة التي توفِّر جديد الكتب، بل إنها لم توفِّر كتبًا جديدةً منذ ثلاث سنوات بدأت فيها أفكار إغلاقها تراود العجوز بين الفينة والأخرى، كان عدد الزبائن يوميًّا يُعَدُّ على الأصابع.

جاء، أغلقت الباب الزجاجي للمكتبة... غيَّرت اللافتة إلى «راجع حالًا»، وكانا الآن هنالك لوحدهما في المكتبة، اصطحبته إلى مخزن الكتب المخفي، وفعلاها، نزع عنها ملابسها، أدخله فيها، تأوَّهَت، صاحت أوَّل الأمر، أخرجه، كانت مستسلمةً تمامًا، شعرت أنها لا تملك عظامًا لتمسك بها، وأنه كان العمود الوحيد الذي تتكئ عليه، أدخله من جديد، شدَّت على شفتيْها من الصراخ ألماً ولذة، لم تكن تريد له أن يلمس مكان عِفَّتها، لكنه كان يملك ما تبقَّى من جسدها... فعلاها ذلك اليوم مرَّتَين في الظهيرة.

عادت إلى المنزل مخدرة شعرت باختلاف في ذاتها، لم تعُد أبدًا كما عادت اليوم، كانت لا تضع كتبها بين فخذيها ولا نهديها، متكشِّفةً للجميع بجسدها الواثق، تحدِّق في المحدِّقين، لا تلتفت إلى الخلف، رأت أخاها ينزل من السلالم ونظرت نحوه ينظر لها، قال لها:

– لماذا تأخَّرتِ اليوم؟

– كان مريضًا، كان عليَّ أن أعتني بالمكتبة.

– هذه المكتبة. لا أعرف لِمَ على والدكِ أن يجعلك تعملين فيها؟.

ثم تركها، تابعت جِرْمَه الذي ينزل من السلالم، ظنَّت أنه اشتمَّ رائحة ما فعلته اليوم، كانت تعتقد أن لكلِّ شيء تفعله رائحة ما: الحب، الكتب، الدراسة، الجنس، الكراهية، الخوف... كانت تعتقد أنها تُصدِر كلَّ تلك الروائح، وأنه من السهل على مَن يقترب خطوتين منها أن يقرأها فقط من الرائحة.

اتَّصلَت بهيمنجواي، أرادت أن تقول له إنه خبَرَ لها أجمل أيام حياتها، تذكَّرَت كامل التفاصيل: يده تتحرَّك في ردفيها، ترتفع إلى نهدها حيث تنزع الملابس، حيث تنتزع القميص وسروال الجينز، قبلاته في فمها وخدها، وهو ينزع الحجاب عن شَعرها لكي يداعبه، جسدها مندفعٌ على الكتب والرفوف، وهو يَلِجُها... أرادت أن تخبره أن المشهد رائع حقًّا، أنها تريد منه أن يفعلها لها في كل دقيقة تمضي من حياتهما، أن يكتب عن ذلك حتى، ألَّا يستحي من أن يقُصَّ ما حدث كما لم يستحِ أن يقُصَّ لها حياته كلها، لكنه لم يَردَّ، حاوَلَت الاتصال به مُجدَّدًا، لم يرُدَّ... شعرت بارتباك، اتَّصَلت مرةً أخرى، لكن لم تَمضِ ثانيةٌ حتى أغلق الخط، سمعت الصوت خلف السماعة يقول «الرقم الذي طلبته... مقفل»، في المرة الرابعة عندما حاوَلَت، تذكَّرَت قصصه التي كتبها، لم تفكر يومًا أنها يمكن أن توجد على شبكة الإنترنت، كتبت اسم إحداها، وجدتها... في موقع إلكتروني لكاتب آخر، بحثت عن القصص جميعها لكن لم تجد اسمه فيها، لا شيء... صدمتها الحقيقة، لكنها كابرَت في حُبِّها له.

دعني أخبرك قليلًا أنَّه ليس هنالك ما قد يجعلك حيًّا سوى الحُبِّ، وما قد يجعلك ميِّتًا سواه؛ لأنه لا ضمانات فيه، إنه كلُعبة النَّرد: إمَّا أن تصيب أو تخطئ، ولكن ما يجعله تجربةً محفوفةً بالرعب هي تلك الزاوية الضيقة التي لا يمكنك في الظروف العادية أن تخرج منها سوى بتصريح من الحُرَّاس، وإذا اعتقدتَ حقًّا أنك تملك القدرة على فِعلها فكُن مُتأكِّدًا أن هنالك ريبة ما في الأحراش.

توقَّفَت حياتها في لحظة واحدة، تلك اللحظة هي لحظات محاولات الاتصال به دون جدوى، قالت لنفسها إنها ستراه في الكلية... لكنها لم تفعل، تبخَّر. قالت إنه سيأتيها يومًا ما في المكتبة، لكنه لم يفعل. قالت إنها ستحاول الاتصال به مرارًا حتى تتمكَّن من التواصُل معه، لكن دون جدوى. نحلَت، كان الواقع يُطبِق عليها مرةً بعد أخرى... إلى أن نجحت في الاتصال به، شعرت بالأمل، أعطته الأعذار جميعها، سمعت أن حربًا ما قد شُنَّت في مدينةٍ ما في هذه البلاد المليئة بالحروب، قالت ربما أنه ذهب يحارب وها هو يعود سالِمًا الآن، كان صوته خلف سمَّاعة الهاتف:

– أهلًا...

– أين أنتَ؟ لماذا اختفيت؟ كيف تنساني؟

انهالت عليه بالأسئلة، شعرت أنها ككل الفتيات التي عرَفَتهنَّ الآن، كل اللائي كانت تعتقد أنها لم تكن مثلهنَّ، كان عليه أن يطمئنها على الأقل على نفسه، ما فعله لا يُغفَر، راجعت علاقتها معه، كان دائمًا كذلك، هل أخبرها يومًا ما أنه يحبها؟ لا، لم يفعل... كانت هي مَن تقول له ذلك، كان هو هو: لا يحب إلا الحديث عن نفسه أو الإنصات لها، كيف لم ترَ ذلك من قبل؟ غابت في جسده، في سحره، في جرأته، فيه، حتى لم تعُد تفرق بين ما تعنيه الأشياء، سمعت صوت قهقهة في سماعة الهاتف وهي تسترجع مشاعرها تجاهه ومشاعره تجاهها، ضحك بشيءٍ من السخرية، قال لها:

– ولماذا تريدين مني أن أهتمَّ بكِ؟

صعقتها الكلمة، لكنه عاد يضحك مُجدَّدًا، ثم قال لها:

– مَن يهتمُّ بالعاهرات على أيَّةِ حال؟

أغلق سماعة الهاتف، ولأول مرة منذ زمن، عاد يحدِّق فيها خيالَ الزجاج ينغرس في رأسها، الدم، الألم، الإحساس بالهزيمة أمام الرقيب، الإحساس بالهزيمة أمام الواقع، عادت للواقع مجدَّدًا... آه لو كان هيمنجواي ليبيًّا، لكنه لم يكن، مرَّت الأفكار السيئة جميعها في رأسها، أحسَّت بزجاج الأفكار ينغرس في جمجمتها، بدمِ الكوابيس ينسكب على عينيها، بألمِ الخذلان وكذبة الحلم تلازمها، فتحت الدُّرج حيث الصندوق حيث الشفرة رقم 8623015 رازور، وضعتها أمامها في الطاولة، ارتعشت... خافت، بكت، ثم مرَّت الفكرة في رأسها بسلاسة... لم تَبقَ إلَّا هي تعزف في رأسها، توقَّف الارتعاش، توقَّف الزمن والأحلام واختفى الرقيب، أمسكت شفرة الحلاقة بين إصبعيها السبابة والإبهام، مرَّرتها طوليًّا، تتعمَّق الشفرة مع كل ضغطة في وريد يدها اليسرى، الدم يخرج، تشعر به، تنتفض يدها اليمنى حبًّا في الحياة، تسقط.

استيقظت، وجدت نفسها في غرفة على سرير أبيض، جَنَّة المنتحرين؟ نظَرَت إلى يدها التي حاولت بتر الحياة منها، حدَّقت فيها جيِّدًا، ضمادة تلفُّ الجرح، ألمٌ مرير وتعب شديد يقطعان جسدها، إحساسٌ بعدم القدرة على الحركة، أنبوب يصل الدم إلى يدها، وصوت جهاز قياس القلب يعمل، لا حاجة لأن تضع إبهامها على وريدها لتعرف أنها عاشت، فشلت في كل شيء، وأصبحت ببساطةٍ من الفاشلات؛ لم تجد ذلك في الكتب... وجدت ذلك من شفرة الحلاقة رازور 8623015: أنَّ هيمنجواي ليس ليبيًّا، وأنَّ الحب ليس ليبيًّا، وأن لا شيء حقًّا ليبيٌّ... لا شيء سوى الفشل.

تاجوراء 2015

---

* البرسيانة: النافذة الخشبية.

الصبّارة تمنح حضنًا

– هذه الثالثة، لقد قتلتُ اثنتين قبلها. قالت له بحزنٍ يضيف مسحةَ جَمالٍ على عينيْها.

– أريدك أن تعتني بها، لأجلي. أضافت.

– لأجلك أفعل كل شيء، ولكن. أراد أن يقول شيئا ما مهما لكنه وجد شفتيْها تغلقان كلماته على شفتيْه.

كان يريد أن يكتب لها، اعتادَا على تبادُل البريد الإلكتروني، كان يشعر بسخافة الأمر، إلَّا أنَّها كانت تعيش في زمنٍ ليس لها، وأراد أن يعيش معها في ذلك الزمن، لم يحب يومًا الكتابة، لم يكن يرى نفسها كاتبًا حقيقيًّا، لَطالما رأى نفسه إنسانًا فارغًا، تافهًا، أحمق، ويحاول أن يلبس ثوبًا ليس له. أزاح حاجياته من على الطاولة، كل شيء في غرفته يذكِّره بها: ملابسه، كتبه، مذكِّراته، فرشاة أسنانه، كوب قهوته، عِطره، چاكتته الجلدية والصَّبَّارة الصغيرة التي تتوسَّط الطاولة اللَّوحيَّة العتيقة، أزاح كل شيء ولم يتمكَّن من إزاحة الصَّبَّارة. كان يريد أن يضع الكمبيوتر على الطاولة ليجلس مجدَّدًا مُحاوِلًا الكتابة لها. تَحسَّس إصبعه، استذكر الألم الذي أصابته به اليوم الماضي لما أراد أن يكتب لها. كان يريد أن يقول لها شيئًا، لكن عندما حاول أن يزيح الصَّبَّارة عن الطاولة انزلَقَت أصابعه عن الحوض لتنضغط على جسد النبات القاسي بشوكه الذي يتعدَّى طولَ حَبَّة أرز.

– أريد أن أحبسك. قالت له. كانت جالسةً على فخذه. عيناها ترهقان قلبه.

– سأجد دائمًا طريقةً للهرب. قال لها بحمقه المعتاد، أَحبَّ أن يستفزَّ مشاعرها، لطالما أَحبَّ أن يشاهد ردَّة فعلها تجاه ما تكرهه الأنثى.

– سأفعلها، سأحبسك هنا، سأخبر عائلتي أنَّني خطفتك، وأنَّه إذا أراد أحدٌ تحريرَكَ فعليه أن يزوِّجَكَ منِّي سريعًا. قالت له تحاول شرح خطَّتها.

– كيف سآكل؟ كيف سأدخِّن؟ كيف سأشرب القهوة؟ كيف سأعيش؟ قال.

– لن تحتاج كل ذلك ما دُمتُ سأعطيك هذا. قالت، أمسَكَت يده ومرَّرَتها تحت فخذيها.

حدَّق في الصبَّارة. «هيَّا، تحرَّكي رجاءً»، قال، وتحرَّك ناحية برسيانة النافذة يريد فتحها، لكن الوعد الذي قطعه على نفسه بألَّا يفتحه مُجدَّدًا عاد ليحرمه ذلك المنظر الذي شاهد فيه شبحها في مطبخها أول مرة يدخل فيها المدينة العتيقة.

منذ ذلك الوقت خمَّن ما تفعله، يشتمُّ رائحة طعامها التي تنفذ من فتحات البرسيانة، فينسحب عَرَقُها من جبينها ليختلط برائحة الحوت والكركب والبصل والطماطم والملح؛ فيتفتَّق على جيدها؛ فينزل إلى نهدَيْها. ينصت لندائها الجاف لطفلتها الصغيرة، كيف لها أن تتحمَّل مشقَّات الحياة داخل أزِقَّة المدينة العتيقة، أراد أن يقول. يُحرّك يده على لوحِ البرسيانة، يده تريد أن تفتح النافذة الخشبية، وعينه تريد أن تراها، من خلال نافذة مطبخها المقابل لنافذة غرفته، عينه تريد أن تجتاز حوض الاستحمام الموضوع في الشُّرفة تَستحمُّ فيها أزهار صفراء لا يعرف اسمها، يتخلَّلها النعناع لينفذ إلى أنفه يُهيّجه. «ربَّما اسمها سيلين» قال يُشبّهها بحبيبته التي تفصله عنها المسافات والحرب ونزق الحياة، مرَّت به الأزهار والأشجار والشجيرات والنباتات التي رآها في مدينة الياسمين، لا تشمُّ فيها إلا الياسمين والقمامة. مرَّ به زمنٌ لم يكن لديه وعود يقطعها، كان يمكنه أن يفتح نافذة غرفته فتتلوَّن حديقة بأكملها أمامه: أزهار زرقاء، صفراء، حمراء، أرجوانية، برتقالية... تصاحبها الحشرات والعصافير، وطيورٌ لم تمرَّ يومًا بسماء بلاده تغنّي رُفقَة البحر الذي يجاور قيلًا الصحفية الفرنسية المقبورة داخلها.

– أنتِ تعرفين أنَّه عليَّ أن أذهب. قال له وهو يمسح شعرها.

– نعم أعرف. أرادت أن تقول لا.

– هذه فرصتي، سأكتب كل ما أخبرتكِ به، كل شيء. قال.

– نعم ستكتب، وسأحب ما كتبته. قالت له، عيناها لو تذوَّق دَمعَهما لأصابه السُّكْر.

– كما تعلمين أنني لن أتخلَّى عنكِ أبدًا، هي بضعة أشهر، يمكننا فعلها. قال في ثقة. سيكون كل شيء على ما يرام. أضاف.

– أخاف ألَّا يكون كذلك. قالت.

– لكن عليك أن تسافر وتجرِّب؛ لَطالما أحببتَ هذه الفكرة. قالت له تحاول أن تُخرِجَه من الحرج.

– نعم، لطالما أحببتُ هذه الفكرة. قال، قبَّلها، دسَّ يده داخل تنُّورتها، أغمضت عينيْها، حاوَلَت أن تتأوَّه، لكنها كانت تسمع حركاتهم في السقف.

عادَ من سرحانه، ابتعد عن البرسيَانة، كان يشعر بالصَّبَّارة تراقبه، ألقى نظرةً عليها. واتته رغبة في الخروج، تلفَّف چاكتَّته الجلدية، كان كل شيء حوله يختلف عن بلده، لا شيء متشابه: البرد، الهواء، الروائح، الأغاني، لون السماء، ملابس الناس، الحوارات بينهم، العراكات، حتى باب بحرها... بدا مختلفًا جدًّا عن باب بحر طرابلس، كان أورين –صديقه الشاعر الذي تعرَّف عليه في دار الصحفية الفرنسية– يُخبره بأنَّه يشعر بالتَّشابُه بين البلدين، ويستذكر هو نزق مدينته وحكاياتها فلا يجد ذلك التشابه الذي ألهم صديقه أن يرتَجِل قصيدةً أمامه يُردِّدها كلَّ صباح» تونس... لِمَ أرى الحسناء

تسقي غزالها فيك؟ والفرَّاشيات كأمِّي... أفتح بابيَ المطِلَّ على البحرِ؛ لأُنصِت للأمواجِ تنقل لي أغاني طرقات النحَّاسين». يخرج ليجد نفسه في شارع الرجل الذي خَلَق منها وطنًا جديدًا للحرية، البرد لم يثنِ العصافير عن أن تستودع الأشجار على طول الشارع سِرَّها، «لو كانت سيلين معي... ستنهار من تغريد العصافير» قال في نفسه وهو يمرُّ بين أجساد الناس، كانت حبيبته تكره العصافير، يحاول أن يجد له مَوطِنًا بين ممرِّ سيمفونية عصافير القصبيِّ القرمديِّ، في مدينة الياسمين كان يتمشَّى لساعة في الممرِّ الترابي بحديقة القيلَّا، يزاحم النباتات، يقارنها بصبَّارته الصغيرة القاسية، يزاحم البشر في شارع الرجل الحبيب، تأخذ بِلُبِّه الفتيات في كل قَدَمٍ من أقدام الشارع، ملابسهنَّ التي تثير بَدَويَّته، شعورهنَّ: زرقاء، صفراء، حمراء، أرجوانية وبرتقالية... ولا شوكَ فيهنَّ ليؤلم قلبه.

– سأكتب لكِ. قال لها يريد توديعها.

– حسنًا. قالت له متعلِّقةً بعينيه.

– سأكتب لكِ كل يوم. قال مؤكِّدًا.

– سأكتب لكِ عن كل شيء، لن تشعري بأنني بعيدٌ عنكِ، ستشعرين بفمي قبلكِ كلَّما قرَأتِ رسائلي. أضاف وهو يريد أن ينهض.

– ابقَ قليلًا، أريد أن أحفظ رائحتك، قُبَلَك، ويديك الدافئتين. هلَّا بَقيتَ؟ كانت تريده أن يبقى معها... للأبد.

– نعم، يمكنني أن أبقى ساعة أخرى. قال وهو يحتضنها.

– هل يمكن أن أخبِّئ جسدك بحِضني؟ قالت له وهي تعصره، لا تريد أن ينفكَّ منها.

– نعم يمكنكِ، هكذا. قال لها، أدخل يدَيْه في قميصها، اعتصر نهديها. وقبَّل جيدها، أُذُنَيْها، وكتفها. حوَّل يديه إلى داخل تنُّورتها، نزع عنها قطعة ملابسها الداخلية.

– إذا كان عليَّ أن آخُذَ الصَّبَّارة معي؛ سيتعيَّن عليَّ أن آخذ هذه أيضًا معي.

– لا يمكنك ذلك.

– إذًا سأعطيكِ شيئًا ما بدلا عنها. قال.

إذ ودَّعها، كان يحمل الصَّبَّارة، وقبلها وصورة عينيها كلؤلؤتيْن تُرغِّبه في أن يسرقهما من البحر، لم يحاول عدَّ المرات التي التصق شوك الصبارة في أصابعه، عندما حملها أوَّلَ مرة تسلَّلَت شوكة، وعزم على الرحيل إذ حزم حقيبته ووضعها في مكانها المخصَّص تسلَّلَت أخرى. في الطائرة، كان كل ما يفكِّر فيه هو الصَّبَّارة، هل ستعيش داخل الحقيبة بعدما تأخَّر موعد رحلته لعشر ساعات؟. يطير فوق سماء المدن كلها ليرى أشجار النخيل والزيتون والسرول شاحبةً؛ فيأمل أن هناك

قَدرًا من الأُكسچين لتستمرَّ صبَّارته الصغيرة في الحياة داخل الحقيبة، «سيتعيَّن عليَّ أن أحملها معي إلى الطائرة في رحلة العودة» قال لنفسه في الطائرة، وفكَّر كم سيكون حجمها بعد مرور نصف عام وهو يحملها بين يديه، يتخيَّل نظرات الجالسين في الكابينة بجانب مقعده وهم يشاهدون سخفه بالنبات الشوكي، «على الأرجح لن يسمحوا لي بحملها معي داخل الطائرة»، قال مُبعِدًا الفكرة. لم يتمكَّن من فتحِ حقيبته إلا بعد مرور يوم كامل، وصل مدينة الياسمين في صباح اليوم التالي، كان مُتعَبًا. نام حتى منتصف النهار دون أن يستطلع المكان ولا الناس فيه، كان يسمع صوت أمواج البحر تنسحب وتقترب في منامه فاعتقد أنَّه يحلم. حلم بعينَيْها، يغوص في البحر ليُخرِجَهما فيدخل شوك الصبارة في أظافره.

أمضى ثلاثة أشهر في مدينة الياسمين لم يكتب فيها حرفًا، لم يكتب لها ولا عنها ولا لأيِّ شيء آخر، يصحو صباحًا ليتناول إفطاره: بيض، قهوة، زبد، مربى الفراولة وكرواسون. يمضي بقية اليوم صُحبَةَ صديقه الشاعر أورين الذي يصدح بقصائده عاليًا أمام البحر، يضحكان، كانت ضحكاتهما تعلو زقزقة العصافير والطيور التي لم يرها تطير في سماء بلاده. يتمشَّى لوحده في الحديقة، يجلس على مقعد بجانب بركة تتوسَّط الحديقة، يشاهد الضفادع تتقافز إلى البركة خوفًا منه، القطط تمرُّ بجانبه، كان المكان مليئًا بالقطط، زهرة الزنبق تسبح في البركة، صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. أراد أن يقطفها لها، كانت الزهرة تدرك أنه يريد أن يُبعِدَها عن موطنها؛ لذا فقد كانت تسبح بعيدًا عن مناله داخل البِركة، الأزهار حوله، يعطي لكلِّ واحدة منها اسمًا» «سيلين الصفراء»، «سيلين الحمراء»، «سيلين البرتقالية»... كان يُسمِّيها. الضفادع تعود إلى السطح، إنَّ طفولته تحمل العديد من حكايات الضفادع، الأشباح، الأزهار، الأشواك، الهرب، الموت الذي شاهده يتلوَّن أزرقًا، إلى أن اعتقد أنَّ روايةً عن طفولته ستكون رائعة، كانت سيلين تسمع قصصه عن طفولته وتنظر بانجذاب نحوه فاعتقد أنَّ قصصه ستكون رائعةً لو كتبها فقط من نظرة عينيها عندما تسمعها منه، دون أن يدرك ألَّا أحدَ يأخذ برأي الحبيبة. يعود لغرفته في نهاية النهار ليجد الصَّبَّارة تنتظره. يسقيها، لم يكن يطيل نظره فيها، كانت كواجب، كطفل مُناط به مسؤولية الاعتناء به، لم يشعر بالحب تجاهها، كل ما شعر به هو وخزها فقط. يقرأ وصايا الكُتَّاب الذين سبقوه فيخلد للنوم، تتكرَّر أيامه فتنسلُّ منه الرغبة في الكتابة يومًا بعد يوم؛ إذ دائمًا ما وجد ما يلهيه عن أن يكتب رسالة واحدة لها.

كان يتجاذب مع أورين الحديث أمام البحر على سفحٍ تلفُّه أزهار صبَّار لا تشبه صبَّارته داخل الحديقة، البدر في أعلى السماء والبحر ينسحب ببطء، يجلسان على حجرَيْن ويتحادثان طيلة الليل عن الحرب، الله، البحر، الكائنات جميعها. سأل أورين:

– يا تُرى ما اسم كل هذه النباتات التي حولنا؟

– هناك كُتُب عِلمية لهذه الأشياء يا صديقي، علماء بحثوا عنها وسجَّلوا أسماءها. كان أورين طبيبًا قبل أن يكون شاعرًا.

– لكن يمكنك أن تسميها ما شئتَ. استدرك كلماته حينما رأى النظرة في وجهه الحائر.

– مَثَلًا؟. سأله.

– حسنًا، هذه الصبارة يمكننا أن نسمّيها الصبارة ذات الأزهار البرتقالية. قال له.

– والزهرة الزرقاء التي بجانبها؟

– يمكننا أن نسميها الزهرة الزرقاء بجانب الصبارة ذات الأزهار البرتقالية. قال أورين في سخرية.

– هل تعلم، إنني أؤمن بأن النباتات تشعر مثلنا. قال.

– لهذا أشعر بسخف النباتيّين؛ يخبرونك أنَّ للحيوانات مشاعر، وعندما تخبرهم ماذا عن النباتات التي يأكلونها؟ يخبرونك أنَّها لا تشعر. أضاف مستذكرًا كُرهه للنباتيين.

– لا أعتقد بأنَّ كل النباتيين كذلك يا صديقي. قال له أورين.

– لكنهم. أراد أن يقول شيئًا، لكنه سكت.

– الحيوانات في الغرب تعيش في ظروف سيئة: حظائر ضيّقة، وهرمونات إضافية، ورَوَث، واستعباد كامل. قال أورين.

– وما أدراك أنَّ النباتات لا تقاسي الأمر نفسه، أعني... أنها لا تريد أن توضع في حدائق أو أحواض أو مزارع لزرعها وجَنْيها. قال كالمنتصر.

– العِلم لا يؤَكّد ما إذا كانت النباتات لديها مشاعر أم لا، لكنَّ عينيك ببساطة يُمكنهما رؤية الحيوانات تتعذَّب. قال أورين.

عند سفره إلى المدينة العتيقة، حزم حقيبته مرةً أخرى، قرَّر ألَّا يضع الصَّبَّارة في الحقيبة، حملها. ركب التاكسي، كان السائق ينظر للنبتة وهو يضع الحقيبة يحاول أن يتبيَّن السبب الذي يجعل مسافره يحملها صُحبتَه، قال له وهو ينظر للنبات:

– الهِنْدي ثمرة لذيذة.

– نعم، ولكن هذه صَبَّارة، إنها تختلف عن الهندي. قال جالسًا وواضعًا الصَّبَّارة الصغيرة بين يديه متجنبًا شَوكها.

كانت الطريق طويلة، سائق التاكسي المتأفِّف من مسافره ونبتته يحاول أن يخلق حديثًا يُسرّي عنه طول المسافة بين المدينتَيْن، يشغِّل الراديو ليغيب في أفكاره، المسافر مُحاوِلًا تجنب شَرَك الأحاديث التي يخلقها التاكسي والتي ستَخِزُه.

عند وصوله، تعيَّن عليه أن يقطع مسافة كيلومتر من المحطَّة إلى البيت الذي سيحلُّ عليه ضيفًا في أَزِقَّة المدينة العتيقة الضَّيِّقة وأسواقها، كان يجرُّ حقيبته الثقيلة بِيَدٍ، ويحمل الحوض بِيَدٍ أخرى، العَرَقُ يتصبَّب منه، والتعب يُنهِك كاهله، يسرح.

– إنَّ اعتناءكَ بالصَّبَّارة يعني أنَّكَ مُستعدٌّ للاعتناء بطفلنا. قالت سيلين.

– هذا يعني أنَّ ابنيْنا الأوَّلَيْن سيموتان. قال.

– هاهاهاهاهاهاها.

– لا أعرف من أين تأتين برموزك وتعريفاتك. قال لها.

– من هنا. قالت له وهي تضع إصبعها على رأسها.

– بل أعتقد من هنا. قال لها وهو يُمرِّر إصبعه هناك في المكان الذي لا تجدر كتابته.

يسقط منه الحوض، كانت الصَّبَّارة مُلقاةً على الأرض، جذورها قد غادرت تُربَته التي تُبقيها حيَّةً، التراب موزَّع، المارَّة يمرُّون بجانبه، هو واقف يشاهد نباته قد أفرغ ما فيه، أحسَّ بأنه ليس أهلًا كفاية للاعتناء به، ثم مَن يصطحب طفله معه في سفره لوحده؟ سأل نفسه، كانت النبتة تستجديه أن يعيدها لحوضها، لكنه شعر برغبته في التخلّي عنها. وقف داخل السوق الضيّقة لدقيقةٍ حتى استجمع نفسه وأعاد الصَّبَّارة إلى حوضها، يضيف بعض ما تَمكَّن من جمعه من التراب، ثم حملها وتابع طريقه نحو مسكنه الجديد.

– ثم إنَّه عليك أن تصحبها معكَ.

– لماذا؟ بعيدًا عن خرافات الرموز؟. قال.

– إنَّها جاسوستي، إذا قُمتَ بأي شيء ستكون شاهدةً عليه. قالت له.

– النباتات لا تتكلَّم. قال لها، شعر بأنَّه يُناقِض نظريته حول النباتات.

– إذًا، فإنه ستَخِزُك كلَّما حاوَلتَ التفكير في الأمر. قالت.

– عِديني أنَّكِ ستزرعين أشواكَكِ فيه عندما يُفكِّر في خيانتي. أمسَكَت الصبارة وقالت لها.

– أَعِدُكِ. قال لها، مُقلِّدًا صوتًا كان يعتقد أنه صوت الصبارة.

جلس في مقهى، طلب كوب قهوة، كانت الشمس تكاد أن تغرب، المارة يَقِلُّ عددهم في كل دقيقة، ورُوَّاد المقهى كذلك، أمضى ثلاث ساعات في المقهى وحيدًا يُدخِّن سجائره ويطلب كوب القهوة تلو الآخر، تَسمَّر جسده داخل الكرسي، لم يتبقَّ في المقهى إلا القليل من الرُّوَّاد: رَجُل وفتاتان يتناولون العشاء، قِطَّة تَشحَذ عشاءها، بائعة ورود بدينة تحاول بيع الورد بالغصب للجالسين، شباب ليبيون يتحدَّثون عن الحرب، «حتى هنا» قال لنفسه، فتاة وحيدة تجلس لتناول الآيس كريم، وهو. رغب أن يجلس بجانبها، أن يحادثها ويشاهدها تتناول الآيس كريم.

– حلمتُ أنني أنجبتُ طفلة، لم تكن أنتَ بجانبي؛ لذا فقد كان عليَّ الاعتناء بها لوحدي. أعتقد أنَّكَ قد سافَرتَ كما تفعل دائمًا، كنتُ أُعامِلُها على أنَّها شيء غريب عنّي، لم أتجرَّأ على رؤيتها، حتى عصيدتها... كنتُ آكلها صُحبَةَ عائلتي؛ من الجوع فقط، لم أشعر بالحنان تجاهها، لا بالحب أو بالتآلُف، كانوا يلقون عليَّ النصائح وأنا أُرضِعها كواجبٍ أو مسؤولية. قالت له.

– لماذا لم تشعري بالحب تجاهها؟. قال.

– لا أعرف، لم أحاول النظر إلى عينيْها، لم أتلمَّس بشرتها، لا أعرف ما لونها أو لون شعرها. قالت.

أمضى أمسيته يراقب المارة، يلاحظ اضمحلالهم في الممشى. كان يطيل النظر في الفتيات والنساء، ينصت لما حوله ويلاحظ لأول مرة أن غناء العصافير اختفى، يتذكَّر غناء تلك التي أراد أن يلقي نظرةً عليها، بَدَت من غنائها أنها امرأة ثلاثينية، «زوجةٌ، رَجُلُها قد سافر، تعيش مع طفلتها الصغيرة، تُربّيها وحدها» فكَّر، قطَعَت سَرحانَه بائعةُ الورد، حاوَلَت اغتصاب ماله بالقوة، تريد بيعه النَّوَّار، كانت تأمره بأن يشتري منها:

– هيَّا خُذْ، اشتَرِها.

– شكرًا، لا أريد. قال وفكَّر في الصَّبَّارة، كان قد قطع وعدًا ألَّا ينجذب إلى أيِّ نباتٍ آخر منذ أن غادر مدينة الياسمين.

– هيا، ستبدو جميلةً عليكَ. قالت آمِرةً وهي تحاول وضع تصميم زهراتها على أذنيه.

– قلتُ شكرًا، اللعنة.

– حسنًا، إنَّكَ لا تستحق. قالت له المرأة البدينة وانصرفت.

شعر بالانزعاج، حمل جسده وعاد إلى غرفته، ولج الغرفة وسمع المرأة تغنّي من مطبخها المقابل «لاموني اللي غاروا منّي... قالولي إيش عاجبك فيها؟»، كان جالسًا على كرسيّه بجانب النافذة التي لا يستطيع فتحها يشاهد الصَّبَّارة مُتجلِّيةً على الطاولة، «چاوَبْت اللي چهلوا فنّي... خوذوا عيني شوفوا بيها»، استمرَّت في غنائها وغسل الأواني. سمع نداء طفلتها:

– ماما، ماما.

– ماذا؟ قالت لها.

– أنا جائعة.

– حسنًا، سأعدُّ لكِ شيئًا.

تحوَّلَت نبرتها من الدلال إلى الجفاف، شعر بوخزٍ في صدره، نهض ليراقب ما تفعله، كان يمكنه من بين فتحات البرسيانة أن يتبيَّن خيالها داخل المطبخ وهي تعود للغناء وغسل الأواني، يحاول أن ينال رؤية جيّدة لوجهها، شعر بأنَّ جسدها يشبه حبيبته، كانت عيناه تغلبانه إلى النوم، ترك الكرسي وانهار على السرير، نَسِيَ أمر الكتابة، راقب الصَّبَّارة قبل أن يخلد لنومه من سريره، كان شوكها ينسلُّ إلى قلبه، وهو يغالب النعاس تذكَّر آخر ما قاله له أورين:

– يمكنك أن ترى كل النساء يشبهن حبيبتك إن كنت تحبها.

– لكن النساء في اختلاف. قال.

– نعم، تخيَّل امرأةً الآن... مَن تشبه؟

– إنها تشبه المرأة التي أُحِبُّ، ولكن هذا لا يدلُّ على شيء، هناك أكثر من 1500 نوع من الصَّبَّار، والتَّشابُه بينها لا يعني أنها هي ذاتها.

خلدَ إلى النوم تلك الليلة، كان عازِمًا على أن يلقي بالصَّبَّارة إلى القمامة في صباح اليوم التالي.

المدينة العتيقة، تونس 2017

سبوندا

لم يكن مريضًا بالاكتئاب، ولم تحاول الألياف الخشبية للحبل أن تعانق جِلد رقبته فترسم معنى الموت فيها، كان مارًّا في الطريق يحاول أن يتوه في زحام السيارات وجوقة الناس عندما مرَّت بجانبه سيارةٌ مُعتِمة النوافذ، كانت إحدى النوافذ نصف مفتوحة يتسرَّب منها دخان كثيف، تظهر قبَّعة عسكرية، لم يكن يعيرها الاهتمام؛ فلَطالما مرَّ بجانب هكذا سيارات طيلة السنوات الماضية إلى أن امتصَّت من روحه ذلك الخوف –أو الشك– الذي كان يعتصره أوَّلَ مرَّة وحلَّ محلَّه برودٌ قاتم، حدَّق في القُبَّعة والسيارة، وفي خيط الدخان الصاعد. توقَّفت السيارة ونزل منها صاحب القبَّعة، رمقه بنظرة حادَّة، سأله «قدَّاحة؟»، تحسَّس جيبه، كانت تقبع داخله قَدَّاحة ما؛ فلم يكن يخرج إلَّا بقدَّاحة في الجيب، كان سيدخل يده ويعطيها له، إلَّا أن وترًا غيرَ مُكتَرِث في حنجرته اهتزَّ قائلًا: «لا... لا أُدخِّن»، قالها واستمرَّ يحمل حياته على عاتِقَيْه، إلى أن أحسَّ بِيَدٍ قاسيةٍ وصلبة تمسك بكتفه وكأنَّ ذئبًا ما عضَّه، شعر بأنيابه تفترس لحمه، التفت ببلاهةٍ، فوجد صاحب القبَّعة يُحرِّك شفاهه، لم يستمع لما يقوله، تَبيَّن من حركة شفاهه الغاضبة والسائل الرغوي الذي يخرج من فمه أنه يملأ أُمَّه وأخواته بالإهانات، أثارت رائحته تقزُّزًا في أمعائه، تذكَّر أنه لم يأكل شيئًا حتى اللحظة، وكل ما سيقذفه في وجه الكائن الرغوي سائل رغويٌّ أبيض، استجمع حاسَّة السمع خاصَّته، وبانت الكلمات «... عندما أتحدَّث معكَ؛ تتوقَّف وتنظر إليَّ يا ابن القحبة»، شعر بمخالبه تنغرس في كتفه أكثر وأكثر، نظر نحوه ببلاهةٍ، وبعينين نزِقَتَيْن، كان صاحب القبعة يكيل له الشتائم، توقَّف المارة ينظرون للموقف، تلفَّت نحوهم صاحب القُبَّعة وقال: «إلامَ تنظرون يا حيوانات؟»، وأخرج من ظهره مسدَّسًا، كان هو لا زال مُجمَّدًا لم يستوعب الموقف بعدُ، صوَّب المسدس نحوه وقال: «سأريك كيف تُلقي بالًا للرجال»، وأحسَّ بنور الشمس يختفي كدخان السجائر، وأحسَّ بالدفء في صدره، لم يكن ليسمع صوت الـ 9 ملِّلي يخترق أذنيْه، ولم يشعر بالرصاصة الصفراء النحاسية تخترق جسده، سقط.

– سبوندا.

– أتعلم؟ يتراوح متوسِّط احتراق سيجارة مارلبورو بين أربع إلى خمس دقائق، يزيد أو ينقص مُعدَّل احتراقها مُعتَمِدًا على عوامل عدة: حالتك النفسية، والطقس، وآخر سيجارة دخَّنتَها، والمكان: خارجًا أم بالداخل، كما يعتمد أيضًا على الجرعة التي يحتاجها جسمك للنيكوتين، فإذا كنتَ دخَّنتَ سيجارة من دقائق ستكون التي تليها أسرع؛ لأن ذلك يؤثِّر على حالتك النفسية؛ مِمَّا سيُحفِّز جسدك على إنهاء السيجارة بأسرع وقت...

– دورك، فلتلعب وتصمت.

أمسك العصا الخشبية، كان يمسك بها بطريقةٍ تجعل من الملاحظ الجيد يدرك أنه لم يكن خبيرًا في لعب البلياردي، ينحني قليلًا على طاولة اللعب وينظر بإمعانٍ للكُرات التي قد يستطيع إدخالها في الحفرة، يُمرِّر العصا إلى الأمام والخلف في حركة تكرارية تقترب من الكرة البيضاء أو «الصِّفر» كما يسمُّونها، راصِدًا هدفه، الذي كان بمعايير لاعبي البلياردي سهلًا جدًّا، يبدو مُصِرًّا على إتقان اللعب، يضرب، لكن الكرة البيضاء تتحرَّك ببطء دون أن تتعدَّى إنشات، وجوه أصدقائه تسبح في عينيه إلى أن غرقوا في الضحك، قال له أحدهم ساخرًا: «آه، رمية جيدة. التالية... دعها تتحرَّك إنشًا آخر»، مرَّر يده في فروة رأسه الأحرش الملويّ كما يفعل دومًا عندما يوقع نفسه في موضع مُحرِج، نظر إليه صديقه الذي يلاعبه منتظرًا منه أن يتفوَّه بكلمة ما، كان الوحيد الأسود في المجموعة، أمسك بالكرة البيضاء ووضعها أمامه ثم قال له:

– اضربها مُجدَّدًا، ولكن هذه المرة كرَجُل.

– هل تعلم؟ إن سيجارة الصباح هي بالتأكيد المفضَّلة لدى جميع المدخِّنين، تحترق بالكامل في ست دقائق وثمان وثلاثين ثانية وخمسين جزءًا من الثانية، أي أنها قد تصل إلى سبع دقائق، عندما تكون قد استيقَظتَ من النوم مصطحبًا مع كوب القهوة «نص نص»* خاصَّتك داخل غرفتك...

– لا أريد أن أعلم، أريدك أن تلعب فقط.

كان الرفيق الأسود الذين يسمُّونه «النيقا» بملامح جدِّيَّة دائمًا، إلَّا عندما يكون مُشبعًا بالحشيش، غير ذلك، تراه ولا تستطيع أن تعرف ما إن كان غاضبًا أو كئيبًا أو فَرِحًا، مُقطِّبًا حاجبيه وناظِرًا بقوَّة في وجهك، يتحدث دائمًا عن الفتيات والموسيقى والسينما والألعاب، وأنه مَلِكُها، ودائمًا ما تراه يسبُّ الليبيّين والقَدَر الذي ألقى به في ليبيا بينما تعيش عائلته كلٌّ منهم في بقعة أرضيَّةٍ يتمنَّى أن يكون فيها، يسحب نفَسًا من سيجارته ويقول لك: «أنا لا أكره الليبيين الملاعين، ولكني أشفق عليهم»، يستمتع دائمًا بالإنصات إلى الحشَّاشين والسكارى ومدمني الحبوب المخدرة، ودائمًا ما يتحدث كيف يمكن للمثلث الذي يقع بين فخذي الأنثى أن يغيِّر العالم، وكل مرَّة يخرج بمهنة قد تكون جالِبةً للربح أكثر من تخصُّصه الدراسي.

كانوا يجتمعون كل ليلة –أربعة منهم أو خمسة– في مقهى البلياردي الواقع في هامش المدينة، إمَّا جالسين يحتسون القهوة ويحرقون الوقت بسجائرهم أو يلعبون البلياردي، كان المقهى يحتوي على ثلاث طاولات بلياردي، يقدِّم قهوة سيئة لا يمكن

أن تتكهَّن بمحتواها لولا ضوء النيون المسلَّط على لافتة قذرة كُتِب عليها «صالة بلياردي»، يتكرَّر فيها اللاعبون وكأنهم يعدون أنفسهم كل يوم للقيامة داخلها، لكل طاولة روَّادها، يجلسون يتحدَّث كلٌّ منهم عن شيء ما يخصُّه، أحدهم كان قصيرًا كعُقلَة الإصبع، مُتذمِّرا بطريقة هزلية، قد تخرَّج منذ سنة ولا زال عاطِلًا عن العمل، يستيقظ الخامسة مساءً فيقول لأول إنسان يراه «صباح الخير»، كان نحيلًا كهيكل عظمي، وقصيرًا، مليئًا بالقهقهة والسخرية، يطلقون عليه لقب

«العكشة»، الآخر يسمُّونه «الإنجليزي»، بأنف يهوديٍّ، وأسلوب مُهذَّب، يحاول دائمًا أن يكون مثاليًّا في كل تصرُّفاته، وتاريخٍ عائلي حافِلٍ بالشخصيات المهمَّة، يمكنك أن تسبَّه وأن تملأ جعبتيه بالشتائم، ليقول لك مبتسمًا: «شكرًا لكَ»، كانوا يختبئون وراء الطاولات ويسحبون أنفسهم كجماعات الذباب حول نزق الحياة، يفتحون بابًا ليقودهم إلى متاهةٍ لا خلاص منها.

سيارة تقف أمام جبَّانةٍ على قارعة الطريق المليء بالمارَّة والسيارات على بُعد أقدام قليلة من محطة الحافلات المحترقة، في زمن ما كانت مليئةً بالحافلات، وكانت المحطة تبيع الرحلات لكلِّ مكانٍ يمكن للحافلة أن تَصِلَه، أمَّا الآن فهي مليئة بالحشاشين والسكارى والمقاهي، وتحوَّلَت لمحطة وقوف السيارات، وسوقٍ يُباع فيه السلاح والحشيش والبوخة* في السر، هي أيضًا لا زالت تبيع الرحلات لكلِّ مكان: بعضها للجبانة، بعضها لأماكن غير معلومة، وبعضها للأحلام.

ومسجد في أعلى الهضبة يظهر على المكان كله، يعمل كبُرج مراقبة للمنطقة، تنبعث أدخنةٌ من إحدى نوافذ السيارة، المجموعة تتناول فيما بينها سيجارة حشيش. إن الطريقة الأكثر أمانًا في نظر النيقا لتدخين الحشيش هي أن تتناوله في طريق عام، حيث لا يمكن للذكاء الاعتيادي لهيئة الرَّدع أن تكتشفه، يسحبون النَّفَس تلو الآخر، ومن ثَمَّ يستندون على مقاعدهم منصتين للموسيقى.

– هذه الحياة فاجرة. قال وهو يعضُّ أسنانه على ما تبقَّى من سيجارة الحشيش. إنها تجعلنا ندور في دائرة مفرغة، لو كانت حياتي عبارة عن فيلم؛ سيكون فيها أربعة مشاهد تتكرَّر طيلة الفيلم: سيجارة حشيش، وعصا بلياردي، وقهوة، والكثير من السجائر، وفيلم بورن، وأحاديث لا فائدة منها...

– ها ها ها. قهقهة خرجت من أحدهم.

– بالطبع، لأنَّكَ تستحقُّ ذلك. قال النيقا.

– لماذا؟. سأله وقد قطَّب حاجبيه ورمى بعقب السيجارة في الكوب الذي يستخدمونه كي لا تسقط بقايا الحشيش المشتعلة على سراويلهم.

– أنت ليبيٌّ، هذا أوَّلًا سببٌ تستحقُّ أن تعيش حياتك التي قُلتَها لأجله، ثانيًا: أنتَ تُطيل التفكير في أشياء تافهة بدل أن تفكر في كيف يمكنك أن تستثمر وقتك. قال النيقا ثم اعتدل في جلسته، ثالثًا: تأتي وتلقي بالقمامة هذه في وجهي.

– النيقا على حق، أنت تستحقُّ كلَّ الذي قُلتَه بسبب كل الذي قاله. أخبره العكشة. وخصوصًا السبب الأخير، أنا مثلًا حياتي جميلة، أشاهد الأفلام يوميًّا، وأنام، وأسمع أن أحد زملائنا السابقين قد تحَصَّل على عملٍ، ولم أعمل حتى الآن، وأقول: فليتعفَّن في مكتبه.

– وعن ماذا تريدني أن أتحدَّث؟ الفتيات ومثلَّثاتهن، أم العكشة ومشكلة البطالة خاصَّته، أم أن ليبيا أرضٌ نَزِقة كما تقول، أم كيف تسير الحرب التي تتكرَّر يوميًّا، أم أن آتي باسم أحدهم وأضعه تحت المشرحة، أم ماذا بالضبط؟. قال وهو يغلي من الغضب.

– لا شيء، لا تتحدَّث عن أي شيء. فلنذهب ونلعب البلياردي. قال النيقا.

يمسك بالعصا، يحدِّق في المثلث الذي تصنعه الكرات مع بعضها، يضيع في اختزال الحياة في ضرب هذا المثلث، يمرِّر العصا للخلف وللأمام، ومن ثَمَّ يضرب الكرة البيضاء بقوة، تنفتح أمامه بوابة يراها عندما تتوزَّع الكرات بعَبَثيَّة على الطاولة، جزء بسيط من الثانية يقوده إلى عالم آخر، يجد ألف ألفٍ من النيقا ينظرون نحوه من فوق، ويقولون له: «أنت تستحقُّ ذلك»، ومن ثَمَّ يضحكون، ودخان مليء برائحة الحِنَّة والحشيش، يصعد ليخفي الوجوه الألفَ ألفٍ، يجري في الفراغ، حيث يجد نسخة مشابهة للعكشة غير أنه فارع الطول، يجلس على مكتبه ومصباحٌ غارِقٌ في الصُّفرة مكتوب عليه رقم «9» مُسلَّطٌ على وجهه، وينظر نحوه مُخبِرًا إيَّاه: «بماذا يمكن أن أخدمك؟ يبدو أنك تحتاج للقليل من روتيني الخاص»، يغمض عينيه، ويرى الوجه قد تغيَّر إلى الكرة السوداء رقم «8»، يحاول أن يضربها، تفلت، يمسك بعصا كانت موضوعة على الحائط، كان طولها يصل إلى كتفه، في حركة تكرارية يحاول أن يضرب الوجه الكرة دون فائدة، ثم يحبسه الرقم «8» داخله ويضيع في طريق أسفلتيَّةٍ بيضاء، غارقا فيها بكامل كينونته، هناك عند أحد مفارق الطريق كان يقف شرطيٌّ لا يفتأ من قول: «شكرًا لك»، كان كشريط كاسيت يعيد نفسه بكل الملامح والتعبيرات ونبرة الصوت، يقول: «شكرًا لك»، «شكرًا لك»، «شكرًا لك». يهرب منه، يضيع في الطريق البيضاء، ومن ثم يعود للشرطي ينظر في ملامحه، فإذا به صديقه الانجليزي، يسقط مغشيًّا عليه، يجد نفسه وقد تصلَّبَت أعضاؤه على سرير، يجاهد أن يفتح عينيه، كانت تحوم حوله مُمرِّضة، تبتسم في وجهه، «لا تقلق، أنت في المستشفى بعد تعرُّضِكَ لحادث»، يحاول أن يفهم ما تعنيه كلماتها، أي حادث؟ ومتى حدث ذلك؟، حدَّق في وجهها المبتسم، ثم التفت لينظر فوقه، تلتفُّ حوله أكياسٌ موضوعة على عِصيٍّ حديدية: كيس مليء بسائل أحمر لَزِج، آخر مليء بسائل أصفر يقارب أن يكون شفَّافًا، كيس مليء بسائل شفَّاف، وتحته يتدلَّى كيس بسائل أصفر فاقع، قبيلة من الأكياس، يشعر بأن عظامه تتمرَّد عليه، وكأن ثَقبًا ينغرس داخل كلٍّ منها، يحوِّل بصره نحو الممرِّضة التي بدت مشغولةً بقياس الضغط في ذراعه، تضغط الكرة السوداء في يدها، يحاول أن ينتفض ضدَّها دون جدوى، هي تمسك به كأضحية تلعب به كما تشاء. فجأة، تحوَّلَت إلى مجموعة من الأشكال الهندسية، تحَوَّل نصفها السفلي إلى مثلَّثٍ غارق في الظلمة، ونصفها العلوي إلى كُرتيْن حمراوَيْن كُتِب على كلٍّ منهما «11»، ورأسها إلى صفراء بالرقم «9»، أمسك بالعصا الحديدية التي بها السائل الأحمر اللزج وحاول أن يضربها بها، تلافت الضربة، واندلق السائل الأحمر إلى الغرفة كلها، وكأنه بحر محبوسٌ داخل كيس، غرق في الاحمرار، استيقظ مرة أخرى ليجد نفسه في حقل أخضر، كان يصيح بكامل قوته: «ما الذي يحدث؟ عليكم اللعنة». الآن وقد تَصبَّب العرق من كامل جسده، حتى إنه صنع بِرَكَةً صغيرة حول رِجلَيْه تهيَّأ له أنه سمع صوت قرقعة أو شيء ما كتدَحرُج كرة، حتى أصبحت تهيُّؤاته حقيقة، استمرَّ في الإنصات، كان صوت التدحرج يقترب كل لحظة منه، حتى رأى في الأفق كرةً صفراء يظهر فيها الرقم 9 ويختفي متَّجِهةً نحوه، حاول أن

يتحرك لكن دون فائدة، كأنه مغروس بأرض الحقل الأخضر، نظر إلى جسده، بدا ككرة، نظر إلى يديْه الحمراوَيْن، ثم حدق في الأعلى، كانت السماء مليئةً بوجوه تبدو مألوفة، النيقا ينظر نحوه ضاحكًا وهو يقول: «أنت تستحقُّ ذلك»، ووَجهٌ آخر لصديقه العكشة يقول: «فلتتعفَّن»، ووجه الانجليزي وهو يبتسم نحوه قائلًا: «شكرًا لك»، يعتريه الخوف، بدت الكُرة أقربَ إليه، ولم يعُد قادرًا على الحركة، تسمَّر في مكانه بينما كانت الكرة تقترب إلى جسده الذي أصبح كرةً حمراء، التهمته.

– سبوندا. يوقظه الصوت النحاسي بعد أن ضربت الكرة البيضاء العارضة وارتدَّت إلى الرقم 8، التي رآها تدخل إلى الحفرة بسلاسة. آها King of Games, mothafucka. يرطم النيقا بلكنة زنجية.

– أشعر وكأنَّ أحدهم يحفر داخل صدري حفرةً. قال.

– ها ها ها، الخسارة مؤلمة. قال العكشة وهو يمسك منه العصا.

انغرس بجسده في الكرسي يشاهد الأصدقاء يلعبون، كان الانجليزيُّ يُحدِّثه عن أشياء يراها مُهِمَّة، قال له إنه قد شاهد اليوم فيلم «Pulb Fiction» وكأنه يشاهده للمرة الأولى، كان دائمًا ما يحدِّثه عن هذا الفيلم، «أتعرف ماذا شاهدتُ اليوم؟ بولب فيكشن. إنَّه رائع. الحبكة، والنُّكَت، وكل شيء كان رائعًا... دخل الاثنان إلى البيت، ثم قال لهم: دعوني أسألكم سؤالًا، هل رأيتم sign أمام منزلي تقول: «مخزن للزنوج الميتين؟». كان أحيانًا عندما يخبره أنه شاهد الفيلم، يصنع سيناريو لما تبقَّى من المحادثة بينهما، «اليوم شاهدتُ بولب فيكشن»، ثم يقول له: «مخزن للزنوج الميتين»، وينظر نحوه، فإذا رأى أسودَ يقول له: «نو أوفينس»، وقبل أن يشعل سيجارته ينظر حوله وكأنه يشاهد طيف والده أو شخصًا ما قد يعرف شخصًا ما يعرف والده فيقول له: «ابنُكَ يدخِّن»، ثم يمضي في حكاية نُكتَة عن الزنوج وعن الله، أصبح هو في الطرف المقابل، يقابله بملامح غامضة لا مكترثة، كان يسمعه عن يمينه وعن شماله ومن ورائه ومن أمامه يتكلَّم، كأنه يتناسخ. ذات مرة، جلس في غرفته يتحدَّث إلى خيالٍ صَنَعَه، كان الخيال يشبه صديقه البورچوازي، قال له: «يا رجل، كفى. دعني وشأني... fuck off»، وكان الخيال يردُّ على كلِّ سبابه بـ «شكرًا»، و»من فضلك»، و»لو سمحتَ»، وعندما يرى أحدًا يتحدَّث عن فلم بولب فيكشن كان يغلق قبضته بإحكام منتظرًا اللحظة المناسبة لِلَكْمِه، أشعل الانجليزيُّ سيجارته بريبةٍ، وظلَّ ينظر حوله بين الفينة والأخرى، كانت له طريقة غريبة في التدخين، يمسك السيجارة مرتجفًا، وعندما يتنشَّقها يبدو وكأن أحدًا ما قد مصَّ له قضيبه، ومن ثم يصرّح بأن «التدخين رائع»، وهو يستمع لكلماته المكررة، محدِّقًا في وجهه الذي بدا عبارة عن شريط فوتوغرافي لبورتريه واحد فقط، إلَّا أن أمرًا شَدَّه في صورته، كان يرتدي قبَّعةً على غير عادته، شعر بوخز قاتل في صدره.

– هناك وخز في صدري. قال بصوتٍ سوداوي.

– أنت تحبُّ إذًا. قال الانجليزي.

– يجب أن أعود للمنزل. قالها وقد نهض عن الكرسي.

كان ينظر إلى سحنته أمام المرآة، عاريًا تمامًا، يداه أصبحتا نحيلتيْن، تشبهان جذوع شجرة ميّتة بتفاصيل عروقه الواضحة، كان يمكن له أن يرى عظام الكتف وشكلهما، عظام الورِكَيْن التي لم يرها منذ طفولته بسبب الشحم الكثيف الذي كان يغطّي جسده، خسره كله في أشهر، واستمرَّ في خسرانه كله حتى أصبح كعودٍ يُمكِن كَسرُه، بدا هزيلًا، تحت كتفه بإنشات كانت هناك ندبة، لمسها بإصبعيه: الوسطى والسبَّابة، وكأنه يتساءل «من أين جاءت وكيف؟»، كانت شبه دائريَّة، مُلتفَّة حولها خيوط جراحة، وداخل وجهه المليء بالشَّعر كان يستكشف الدائرة بعينين نصف مغمضتين وروح قَلِقة، تحرَّك نحو الدُّشّ، كان الماء الساخن يصبُّ على جسده، وقد أمسك بعضوه يحاول أن يتخيَّل فتاة ما، لا يعلم لماذا أَحبَّ أن يتخيل صورة مُمرِّضة في وضع جنسي ما، وراح يثير نفسه، «اللعنة، أفلام البورن أصبحت تقليديَّةً جدًّا» قال في نفسه، لكنه لم يفهم يومًا كيف يمكن لشخص أن يداعب عضوه بدون أن يرى وضعًا جنسيًّا أمامه، لم يفهم غريزة التخيُّل أو مجرد الاستماع لمحادثة سِكس فون، «ولكن أفلام البورن تقليدية، كل الحركات مُكرَّرة، حتى إنَّكَ تعرف أين تكمن كل وضعية خلال الفيلم»، وبينما كان الماء يسقط كترتيلةٍ سماوية على جسده كان يجاهد أن يجعل من ذَكَره ينتصب دون فائدة. «آه، اللعنة، لا يمكن لأحدهم أن ينام وكل هذا الكبت مسجونٌ داخله، يجب أن تطلق ولو القليل»، قال لنفسه. إلَّا أنه استطاع أن ينام، كان النوم عنده أمرٌ مُقدَّس حاول في أكثر من مرة أن يتمرَّد عليه، لكن لم يَنتُج عن محاولاته أي نجاح.

استيقظ، شعر بالدوار، وجد نفسه مكبَّلًا في سريره بواسطة قوَّةٍ خَفيَّة، ولا وجود لأيَّة حِبالٍ تُكبِّله، مُكبَّلًا بروحه، لم يستطع الحركة، كان كأنه قد سقط من علو وأصابه الشلل، حاول أن ينهض، أخذ منه الأمر ساعةً ليتمكَّن من النهوض على قدميه شاعِرًا بالدوار، تحرَّك نحو الكومودينو حيث يضع هاتفه النقَّال الذي دائمًا ما تعوَّد على إطفاء المنبِّه فيه كل صباح، سواء استيقظ قبله أم بعده، لم يسمع أي صوت للمنبه، لكنه أحسَّ بتلك الحاجة لأن يمسك بالنقَّال، كان يبتعد عنه بعد كل خطوة، سمع صوت رصاصة ما تُطلَق، أصمَّت أذنيه وسقط من الإغماء. استيقظ، كان يشعر بالدوار، وجد نفسه مُكبَّلًا بروحه، لم يستطع الحركة، كان كأنه قد سقط من علو وأصابه الشلل، حاول أن ينهض، أخذ الأمر منه ساعة، تحرك نحو هاتفه النقال، أحس بتلك الحاجة الصباحية لأن يمسك بالنقال، نظر نحو النافذة كانت أصوات عراك في الخارج تتعالى، أحدهم يقول: «عندما أناديك تجيب يا ابن القحبة»، ثم صوت رصاصة، غشي عليه وسقط من الإغماء. استيقظ، كان يشعر بالدوار، لم يستطع النهوض من على السرير، حاول، ثم حاول، إلى أن نهض بعد ساعة، تحرَّك نحو الكوميدينو، حيث هاتفه النقَّال، أحسَّ بتلك الحاجة المريرة لأن يُمسِك بالنقَّال، التفت إلى الحائط الفارغ إلا من ثُقبٍ مساحته 9 مل، تمعَّن في الحائط، لمس الحفرة الصغيرة بإصبعيه: السبَّابة والوسطى، أحسَّ بوخز في صدره،سقط مُغمًى عليه. استيقظ.

– سبوندا.

– أتعلم؟ اليوم قد حلمتُ حلمًا غريبًا. قال، وظلَّ يتحدَّث عن تفاصيل الحلم.

– تستحقُّ ذلك.

– لماذا؟

– أنت ليبيٌّ، هذا أوَّلًا سببٌ تستحقُّ أن تحلم بالذي قُلتَه، ثانيًا: أنتَ تُطيل الحلم في أشياء تافهة بدل أن تحلم في أشياء كالمثلَّثات بين أفخاذ الفتيات والمال. قال النيقا ثم أمسك عصاه ووجَّهها نحوه كأنه يتَّهِمه، ثالثًا: تأتي وتُلقي بالقمامة هذه في وجهي.

– ...

– النيقا على حق. قال العكشة وقد أمسك العصا منه مُعلِنًا عن دوره. عليك أن تواظب على الحلم بالذي قاله لك؛ لأنك لن تحصل عليه في الحياة هنا، ما دُمتَ عاطِلًا، وغير جذَّاب، وتقول أشياء فلسفية يصعب على الفتيات فهمها، احلُمْ بأنَّكَ تضاجعهن لأنك لن تفعل، واحلم بالمال لأنك لن تحصل عليه، واحلم بكل ما تريد تحقيقه... لأنه لن يتحقَّق، على الأقل تكون قد حقَّقتَه في الحلم، واحلم بزملائك الذين يعملون ويتعفَّنون في مكاتبهم وأنت متعفِّن في سريرك. وبدا كأن العكشة قد أصبح فيلسوف عصره.

– ولكن ماذا يعني كل هذا؟ قال وقد جلس يتجرَّع ما تبقَّى من كوب قهوته. ماذا يعني أن آتي كل مساء لألعب البلياردي في هذا المكان القذر صُحبتَكم، وأحتسي القهوة التي إذا ما فحصني طبيبٌ ما سيقول إنني أعاني من تَليُّف في المعدة بسببها، ماذا يعني أن يُقيّدني الخوف من الموت هنا وأن تتوقَّف ساعتي التي تَعِبَت من تكرار نفس الأحداث يوميًّا؟. ألقى بكل الأسئلة وكأنه يلوِّح بها في وجه الريح.

– يعني أن تستمتع بالنكاح وتصمت. قال النيقا وقد أدخل كُرَتَيْن بضربة واحدة وبدا مَزهوًّا بنفسه.

– صحيح، اصمِتْ... لو سمحت. قال الانجليزيُّ مُعقِّبًا.

خرج يستنشق بعض الهواء، كانت الطريق مُظلِمة إلَّا من مصباح النيون المصوَّب نحو واجهة المقهى، كان البرد القاسي يجعله يُشكِّك في إذا ما كان البخار الذي يُخرِجه من السيجارة أم من أنفاسه، أمسك السيجارة بعيدًا عن رأسه، وبدأ ينفخ أنفاسه في الهواء، ونظر إلى تَحلُّلها في المكان بابتهاج، حدَّق في ضوء النيون، اكتسحه شعور بأن يقذفه بحجر، هل تعلم أنَّ السيجارة العادية تبقى مشتعلة من خمس عشرة دقيقة إلى عشرين دقيقة دون أن تلمس شفاهك ولا تنطفئ؟ أَحبَّ دائمًا أن يقول هذه المعلومة لأصدقائه، جعلها تحترق دون أن يكترث لها، وأمسك بحجر تحت قدميه وكأن القَدَر يقول له: «جَرِّب أن تقذفها»، صوت بداخله يَحضُّه على إلقاء الحجر، كانت يده منقبضة على الحجر بشدَّة، بَقِيَ على هذا الحال يحدِّق في مصباح النيون وماسِكًا الحجر حتى انطفأت سيجارته بكاملها، أحسَّ بانطفائها، ألقاها وأشعل أخرى، وظل يحدِّق في المصباح، تَشجَّع، كان سيلقي بها، أحسَّ بِيَدٍ تُمسِك بكتفه بشدَّة، ذُعِر، نظر إلى الخلف، كان النيقا يحدِّق فيه

قائلًا بصوت به حشرجة: «ماذا تفعل؟»، «آه؟ لا شيء» قال. لم يكن مهتمًّا في إطالة المحادثة أكثر من ذلك، سأله «قدَّاحة؟». أحسَّ بغصَّة داخله، وكأنه يهينه، أعطاه القدَّاحة ويداه ترتعشان.

ظَلَّا طيلة الوقت واقفين أمام المقهى يتحدَّثان، أخبره النيقا أنَّ أمامه خيارين: إما أن يصمت ويكمل حياته كما اعتاد عليها أو أن يفِرَّ بجلده، وعندما سأله كيف له أن يفِرَّ بجلده، أخبر أن الموت أيضًا يعدُّ طريقة للفرار بجلدك من جحيم تعيشه، أن الموت أحيانًا يكون حلًّا لكل معضلاتك، على الأقل فإنه يُعتَبر حلًّا أفضل من التذمُّر دون فعل أي شيء، أخبره نُكتةً قَذِرة عن إبليس والحمار، حيث اتفقا على أن يتضجاعا، بشرط أن يتبادلا الأدوار، فدور لإبليس ودور للحمار، قال الحمار «حسنًا... ولكني أنا الأول»، وبعد أن انتهى دوره قال إبليس في حماس: «الآن... جاء دوري»، قال له الحمار: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، اختفى إبليس، ظلَّ حانقًا يشتم في إحدى بقاع الأرض، عاد للحمار بعد رحلة مُرهِقة، وقال له: «أيُعقَل يا حمار؟ أتغدر بي؟»، أخبره الحمار: «حسنًا... ما رأيك أن نعيد الكَرَّة، بشرط أنا الأول هذه المرة؟»، وافق إبليس على مَضَضٍ، وعندما انتهى الحمار من دوره، كرَّر فِعلَته، ظلَّا على ذلك المنوال مرَّاتٍ ومرَّات، ظل إبليس في كل مرة يتذمَّر ويشتم دون أن يقوم بشيء حيال الحمار، وفي يوم من الأيام خطرت بباله فكرة، جاء للحمار باسمًا، وقال له: «هاه، يا حماري العزيز... ما رأيك في دورة أخرى اليوم؟»، تفاجأ الحمار من فِعلَة إبليس، وقال له بارتياب: «ولكني أنا الأول، كالعادة»، قال إبليس ضاحكًا: «ها ها ها... بالطبع، بالطبع يا صديقي»، وعندما انتهى الحمار وكرَّر فعلته، لم يختفِ إبليس، بل وقف أمامه ضاحكًا ساخرًا منه، وقال له: «ها ها ها... إنه دوري أيها القذر، لقد رجعت إلى حظيرة الإيمان فقط لآخذ منك دوري»، ضَحِكًا، أشعل النيقا سيجارة وقال له: «المغزى... أن تفعل أي شيء، لأن تُغيِّر من حالك، وإلَّا اصمت ودَعْ هذا الحمار الكبير ينكحك طيلة حياتك». سكت، وبدت على وجهه ابتسامة حنين، قال للنيقا: «في أحد الأيام، دخلتُ لأول مرة حانةً في إحدى الدول أنا وصديقٌ لي، كان صغيرًا بالنسبة لحانة، ولكننا جلسنا على الكراسي العالية أمام البارمان، كان شابًّا حَسَن المظهر، يرتدي رداءً مكتوبًا عليه «هاينكين»، يمسك بكأس ويقوم بمسحه، دخلت فتاة جميلة، جلست بالقرب منَّا، ظللتُ طيلة الوقت أحدِّق بها، كان الجوُّ لطيفًا للغاية، ليس لأن أنفي سيكون أحمر بفعل البيرَّات بعد لحظات، ولا من أحاديث صديقي التي يصبُّ فيها كامل عاطفته؛ ولكن جسدي وروحي البدويين لم يستطيعا أن يُصدِّقا هكذا أجواء، عندما طلبتُ قِنّينة الهاينكين خاصَّتي كانت باردةً، ظلَلتُ للحظاتٍ مُمسِكًا بها أتحسَّس برودتها، اندلقت في روحي عاطفة جيَّاشة، نظَرتُ نحو الفتاة مُجدَّدًا، والتي صادف أن نظرت نحوي، رفعت القنينة عالية مبتسمًا في وجهها، وفتحت المجال للدفء داخلي، لحظة كهذه، حرَّكَت شيئًا داخلي، شيئًا لم أُرِد أن يتحرك، وكنتُ أتمنى أنها تتكرر، ولكن الأمر سيكون مُمِلًّا: أن تتحوَّل تجربة جديدة إلى أمر أعتاد عليه يوميًّا، أتذكَّر أنني كنتُ أستمتع كثيرًا بالمرات الأولى التي كنت ألعب فيها البلياردي معك، رغم أنني لم أكن أعرف شيئًا عن البلياردي، كانت تجربةً جميلة أخرى، ولكن ما إن اعتدتُ عليها، بدأ ذلك الشيء يتحرَّك مُجدَّدًا». نظر إليه النيقا مبتسمًا، وقال له: «إذًا... اصمِتْ».

استيقظ، كان يشعر بالتحلُّل، كانت الحُمَّى في جسده تجعله مُخدَّرًا، نظر عاليًا، كان هناك كيس مليء بسائل أحمر لزج ينزل قطرةً قطرة من خلال أنبوب، كان يتابع مسار القطرات الحمراء داخل الأنبوب، كانت تشبه كرات البلياردي، الرؤية ضبابية، وبالكاد ركَّز نظره نحو القطرات، تابع إحداها التي بدأت تقترب من يده، ألقى نظرةً نحو يده الخائرة، الملصق بها فتحة ينتهي بها مسار الأنبوب حيث تدخل القطرات، ودَّع القطرة التي طاردها داخل جسده، في وقت آخر كان سيتخيَّلها تدخل إلى أوردته وتصافح قطرات الدم الحمراء داخله، التي ستنظر إليها بريبةٍ لوهلة، ثم ستعتقد –فقط لأنها تشبههم– أنها إحدى قطرات الدم الحمراء التي ضلَّت الطريق؛ ومن ثم تُرحِّب بها متمازجة، فيفقد تَعقُّبه لها؛ لأنه لن يعرف شكلها بين تلك الكريات الكثيرات التي شبهنها، ولكنه مُشتَّت التفكير، جاهد أن يفتح عينيه أكثر فأكثر، استطاع أن يلحظ فتاةً برداء أبيض مُغطِّية وجهها بإيشارب أبيض، تعمل على تفقُّد ضغطه، لم يكن يحسُّ بوجودها بجانبه تضغط على ذراعه بجهاز الضغط كأنها تحاول أن تخنقها، حدَّق فيها بضبابيَّةٍ مُحاوِلًا فهم ما الذي يحدث، ابتسمت له بابتسامة صفراء، وجهها يشبه الفتاة التي قابلها في الحانة، قالت له: «حمدًا لله على سلامتك». قطَّب حاجبيْه، قالت له: «أنتَ هنا... بعد تَعرُّضِكَ لحادث إطلاقٍ ناريٍّ».

تاجوراء 2015

---

* قهوة نص نص: إحدى أنواع القهوة الإيطالية في ليبيا. نصف الكوب قهوة، نصفه الآخر حليب.

* البوخة: خمر محلية ليبية وتونسية.

الحب، البالونات
وسيارة الآيس كريم

(أ)

في المقهى يجلس مرتديًا قميصًا أبيض، به رسومٌ متكرّرة لعَجَلة مِلاحة السفن، سِحنتُه لم تكن توحي أبدًا أنه قد ركب زورقًا في حياته، بل على العكس من ذلك، بدا لون جِلدِه أبعدَ من أن يكون قد خالَطَه مِلحُ البحر يومًا. كان ثلاثينيًّا، من أبناء أغنياء الحَظِّ، يُدخِّن من النرجيلة، واضِعًا يده اليمنى على خشب الكرسي القديم يحرّكها عندما يتحدَّث دائمًا، وينظر نظرةً مُتفحِّصة لخلفه كلَّ هُنَيهة كأنه ينتظر أحدهم، جِلدُه المنتعش أعطى للضوء الذي يتسرَّب بين أدخنة النرجيلة المتصاعدة بريقًا، قال وهو يستنشق نفَسًا واسعًا من الخرطوم البلاستيك، مُمسِكًا إيَّاه كأنَّه أحد أبناء الشراكسة:

– الأمن والأمان... نعم، أعرف عمَّاذا تتحدث، لقد كانت لديَّ سيَّارة فاخرة اشتراها لي أبي هديةً لنجاحي في الثانوية العامة، لم يكن هناك مثلُها في البلاد... أقول لك، كانت أولى السيارات من نوعها التي تحطُّ على طريق المطار، كنتُ أدور بها الأماكن كلها... عرفها الناس في المدينة، وكان يقفون لها تحيَّة احترام في الطريق، أرصفُها حيث شِئتُ، وأتركها لساعاتٍ، لأجدها كما تركتها، وفي أحد الأيام قد نسيتُ أن أطفئها بعد أن ركَنتُها –فقد اعتقدتُ أنني لن أغيب طويلًا؛ إذ لطالما فَعَلتُها: أركنها، أدع المحرّكَ يدور، أدخل المول، السوق أو أحد تلك المقاهي التي أرتادها لأجدها لا زالت في مكانها– ودخلتُ لسوق المشير –كما أتذكَّر– لأشتري بعض الحاجيات، لا أتذكَّر ما كانت... ربما نوع من القماش فقد كنتُ في ذلك الوقت على مشارف الزواج، سوق المشير سوقٌ شعبيٌّ والأسواق الشعبية مُزعِجة... أحيانًا تجد ضالَّتك في ثوانٍ، وأحيانًا أخرى يتعيَّن عليك أن تتفحَّص كل تفاصيلها وتسأل الباعة وأبناء الأزِقَّة، وقد تخرج منها بخُفَّيْ حُنَين، ذلك اليوم كان أحد تلك الأيام التي أمضيت نصف ساعة في السوق أبحث عن ضالَّتي دون فائدة، أتذكَّر أنني أشعلتُ سيجارتين أو ثلاثًا أيَّامَ كنتُ أُدخِّن، أمَّا الآن فقد تخلَّصتُ منه، نسيتُ أمر السيارة المركونة على الرصيف ومُحرِّكها يدور والبنزين يُحرَق، عندما فشلتُ في إيجاد كنزي قرَّرتُ أن أجلس في مقهًى أعرفه، طلبت قهوة... وحدَّقتُ أنظر في المؤخِّرات الملتصقة بسراويل الچينز، ذلك العام كان أول عام تخرج فيه صيحة السراويل الملتصقة؛ لذا فقد كنَّا نستمتع نحن الشباب باكتشاف أجساد الفتيات والمدامات أيضًا، جالِسًا أحتسي قهوتي... عينايَ تبحثان عن هدفٍ تركنان فيه، أذناي تُنصِت لهتافات البائعين وطَرقات النحاس في السوق والأحاديث الجانبية بين روَّاد المقهى، وعقلي يفكِّر في ضالَّتي... أين أجدها؟ وسيارتي الفاخرة لم تزل مَركونةً على الرصيف ومُحرِّكها يدور، هل تصدق؟ جلست في المقهى نصف ساعة أخرى، ومن ثمَّ

التقيتُ بصديقٍ لي تذكَّرتُ أن والده يملك أحد محلات الذهب في السوق، احتَسيتُ ما تبقَّى من قهوتي بسرعة ونهضت أستدرك فكرة زيارته حتى لا أنسى، نعم... كنتُ أنسى كثيرًا... ووجدتُه في محل والده يبيع لإحدى المدامات، كان نهدها رائعًا، يظهر من سُترة قطنية بها رسمُ قُبلَة حمراء، عندما خرَجَت من المحل مبتسمةً قال لي إنه قد تحَصَّل على رقم هاتفها المحمول، ومضى يحكي لي مغامراته مع زبوناته، تحادثنا وضحكنا، وقال لي إنني لن أجِد ضالَّتي في السوق لأسبوع على الأقل، «سأخبرك متى تمُرُّ عليَّ»، هي العبارة التي ذكَّرتني بسيارتي، تساءَلتُ: «هل أطفأتها؟»، لم أكن أريد أن أتَّصِل بأحدهم ليشتري لي بنزينًا إذا تركتُ محرِّكها يدور وقد أنهى البنزين، خرجت من السوق لأجدها مرصوفةً كما تركتُها دون أن تتحرَّك مقدار شينترو واحد، والمحرِّك لا يزال يدور.

التفت مرة أخرى للخلف، أشَّر بيده ناحية عاملٍ زنجيٍّ كان يعمل «ولعة» في المقهى، تأفَّف... أطلق سبَّةً خفيفة كأنه يقصد العامل المهمل.

– والآن؟

– الآن؟ هاهاهاهاها... لقد سرقوا سيارتي، بالأحرى فقد أنزلوني منها، وجَّهوا «كَلاشِن» إلى رأسي، وقالوا لي ثلاث كلمات فقط: «انزل... للخلف، المفاتيح». لكن، أتعلم؟ أحمد الله أن حدث الأمر لي، لم أكن لأستيقظ من غفوة زماني.

(ب)

– لماذا تريد أن تعرف عن الأمن والآمان؟. قال الرجل الذي يقضم أظافره.

– أنا صحفيٌّ...

– عمَّاذا؟ قال الآخر السمين.

– رأيك.

– حسنًا...

أشعل سيجارته، احتسى ما تبقَّى من كوب قهوته الورقيّ، كان الكوب باردًا بين يدَيْه... من حالته لا بُدَّ أنه استقرَّ على الطاولة لساعة، جلس رفيقه يراقب، يأكل أظافر يديه المليئتيْن بالشَّعر، أمَّا هو فقد كانت كرشه يكاد يُمزِّق قميصه الأزرق، ويكاد صدره يُخرِج حصان البولو من المضمار، بحث في المكان يترصَّد وجوه الرُّوَّاد، ثم استقرَّت ملامِحُه المزوَّقة بتراب القبليّ، ثم قال:

– حسنًا، عليك أن تعرف أوَّلًا أنني لم أحب أبدًا النظام القديم لأنني عملتُ في تاكسي بعد أن خرجت من الدراسة الجامعية، مُنتَظِرًا قرار تعييني الذي غاب عن أيامي؛ لذا لم أعرف الأمن الاقتصادي ولا الأمان المهنيَّ؛ فقط لأن والدي أنهى حياته عتَّالًا... هذا الشعب لا يزال ينكر أنه يومًا كان عتَّالًا، ويُنكر أنه بعد اكتشاف النفط ظلَّ هنالك ليبيُّون يكافحون من أجل الحياة مثل والدي، ولأنَّ والدي كان عتَّالًا طيلة حياته لم تكن هناك معارف أو نقود تُحرِّك مَلفِّي الراقد في سِجِلَّات اللجنة الشعبية العامة للعمل وظلَّ طيلة حياته أجيرًا. «شركاء لا أُجَراء» هذه كذبة ضحك بها علينا النظام؛ لذا فأنت الآن تدرك إدراكًا جيدًا أنني لستُ مُناصِرًا له، ولستُ مُناصِرًا لأحد، أيام الثورة أوقفتني بوَّابات النظام، كما أوقفتني بوَّاباتُ الثُّوَّار تبحث عن الحشيش، السلاح، القنابل الإرهابية، الزنوج الحالمين بروما، أو المصريين العاملين لابتزازهم، لم تمُرَّ عليَّ بوَّابةٌ واحدة في حياتي ولم تبتزَّني، أنتَ سائق حمار الوحش فرد من سفالة البشر في المجتمع كما كان أبي سائق الحمار قبلي، أعرفهم جميعًا... واحدًا واحدًا، الأمن الذي تحكي عليه هذا شربتُ مرارة كأسه كل يوم، ولا زلتُ أشرب، أنا صايع، حثالة، مهرّب مُخدِّرات وزنوج، وعامل في الدعارة أوقات الفراغ... هكذا كانوا ينظرون إليَّ: خطرًا من الأخطار على أمنهم وأمانهم، ولولا آية ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ التي أضَعُها في سيارتي لم يكونوا لِيَثِقوا حتى في جنسيَّتي، ولكن يا رجل... يا رجُل، لم أعُد أتمكَّن حتى من تحصيل لُقمَة عيشي؛ فقط لأنني كنتُ أعمل في منطقةٍ لا يزال يتحارب عليها الثُّوَّار حتى الآن، مضت أشهر لم أتمكَّن حتى من إيجاد 5 دنانير تنتظر لأقلَّها في الطريق إلى وسط البلاد... ماذا تريدني أن أخبرك عن الأمن؟ اذهب واسأل النوبيرا (وأشار بإصبعه إلى سيارته المرصوفة أمام المقهى) وستخبرك هي عن الأمن والأمان، انهض... تعال معي واسألها: «يا نوبيرا... هل قبَّلَت كراسيكِ مُؤخِّرةً فرنسيَّةً من قبل؟»، ستخبركَ أن «نعم يا أستاذ»، ومن ثَمَّ اسألها: «هل تتذكَّرين طعمها؟»، ستقول لك: «لا»، ولا تتجرَّأ أن تسألها لماذا؛ لأنها قد تَسبُّكَ، قائلةً بأن الأمن والأمان غادرا البلاد يا ابن القحبة.

ظلَّ صديقه يقضم أظافره ويتفلُ في الأرض مُحدِّقًا.

– وأنت يا أخ، ما رأيك؟

– لا شيء.

لكنَّ عينيه أخبرتا بمدى الشَّكِّ في رأسه، ولو أنه تجرَّأ على الحديث كان سيقول أشياء مثل: «هل أنت جاسوس؟ أعرف أمثالكم... أنتم تبيعون المعلومات، لن أخبرك بشيء...». وإن كان صديقي غبيًّا حتى يفرغ ما في صدره، ولكنني أعرف ما لا يعرفه.

(ت)

– نعم، سمعتُ عن أبي يومًا يقول بأنه كان يرتدي بزَّةً زرقاء يومًا، يبحث في أزِقَّةِ حَيِّنا عن الخروف، أحد السارقين الذين يقفزون لمنازل الناس عندما يسافرون إلى العطلة، أو يذهبون للبحر تاركين المنزل في حراسة الله، هل تعرف يا عمَّاه أنَّكَ إذا ألقيتَ رغيفًا في الطريق فعليك أن تُقبِّلَه حتى لا يشتَمَّ رائحَتَه الشيطانُ، تفعل هكذا... تمسح التراب، ترفع يدك عاليًا حتى تقترب إلى الله، ومن ثَمَّ تُقبِّلها وتقول: «لقد اشتمَّها ربي»، اليوم أخبرتني أمي أن أقولها بعد أن وجدت رغيفًا مُعفَّرًا بالتراب.

– وماذا عن الخروف؟

– آه... الخروف، لا أعرف بماذا يدعونه الآن: هل الذئب أم الخروف؟ قال أبي إن النَّاس سمَّوه الخروف لأنَّ أولى سرقاته كان كبشًا حاول أن يُهرِّبه من منزل الحاج عبد السلام، الذي سافر إلى تونس. هل تونس بعيدة يا عمَّاه؟ قال أبي إن الحاج عبد السلام سافر إلى تونس ولم يَعُد حتى الآن، استغلَّ الخروف غيابه وسرق الكبش، لكنه وجد أنَّ الباب الحديدي لبيت الحاج كان مُقفَلًا من الداخل بسلسلة حديدية طويلة الذراع، لم يترك الكبش، بل حاول أن يجعله يتسلَّق معه السور الذي تَسلَّقه هو ليدخل إلى المنزل، لكنني لا زلتُ حتى الآن لا أعرف هل كان ذلك قبل أن يتسمَّى بالذئب أم بعدها، أبي يقول إنَّه أطلق على نفسه الذئب بعد الثورة... هل تحب الثورة يا عمَّاه؟ أنا أُحبُّ الثورة، خالي يحب الثورة... إن لديه أسلحة كبيرة هكذا (وفرد ذراعيه إلى أقصاهما). عندما أكبر سأكون مثل خالي: ثائرًا، لكنَّ أبي يقول إنَّ الثورة قد طرَدَت الأمن والأمان، يا تُرى أين ذهب الأمن؟ إنني أعرف لون بزَّته لأنَّ أبي شرطيٌّ، لم يَعُد أبي يرتديها لأنَّ الذئب صار هو الأمن في حَيِّنا. إنَّ لديه صوفًا فوق رأسه، الصوف نفسه الذي يجعلني لا أعرف هل هو الآن خروف أم ذئب، رأيتُ الذئاب في الرسوم المتحركة... لم يكن لديها صوف فوق رأسها، لها أنيابٌ وشَعرٌ مثل شَعر أمِّي الحريريِّ، لقد صار الخروف يرتدي سروال چينز، ويجلس طيلة الوقت في سيارته الوطواط، ويضرب السلاح في السماء في القيلولة وفي الليل، لديه سلاح مثل سلاح خالي.

(ث)

– هيه... أنتَ. ماذا كنتَ تريد من الفتى؟

– لا شيء.

– ما هذه الكاميرا؟ ولماذا كنتَ تُصوِّره؟

– أراد صورةً فأخذتها له.

أخرج سلاحه من سيارته المركونة بمنتصف باحة الحي، ثم قال:

– حسنًا... سأسامحك هذه المرة، منظرك يوحي أنك رجل طيب ومحترم؛ ولذلك سأسامحك لكن لا تُكرِّرها، وإذا وجدتُكَ بهذه الكاميرا هنا مرَّةً أخرى سأفعل أشياء أكثر من أخذها منك، هل فهمت؟

– نعم...

– اتَّكِل على الله.

(ج)

– عمَّاه، هل تريد شراء سلاحٍ يا عمَّاه؟

كان يقف في زاوية يستظلُّ بالشمس، وَشْوَشَ بالكلمات، وبصوتِ شَخصيَّةٍ كرتونية طفولية.

(ح)

– الأمن والأمان هو أن أُقبِّل حبيبتي على راحتي دون وساوس، هل تعرف أي مكان في هذه البلاد يمكنني فعل ذلك فيه؟ بحَثتُ في كل مكان: في البحر، في الطرقات النائية، في الأزِقَّة المخفيَّة... لقد كان لديَّ مخبأ جيِّد أختبئ فيه مع شفاهها وجسدها المرمريِّ، إلى أن فقَدتُه... لقد قام أحد الجيران بإخبار شرطة الأخلاق الجديدة، وكاد يفضح أمري، ولو أن حبَّنا تأخَّر قليلًا لكنتَ سترى قِصَّتنا منشورةً في الإنترنت، أين أُقبِّلها؟ لا أعرف.

(خ)

– لقد أصبحت كصورة فوتوغرافية تضعها زوجةٌ غنيَّةٌ لتزيين منزلها، لم يَعُد أحدٌ يحترمنا... وضعوني فقط ليُظهِروا للناس اهتمامهم بي، كان هنالك زمان يخشاني فيه الجميع، أوقف أحدهم لأجده يرتدي شبشبًا فأخالفه، عندما يجدون أمثالي في الطريق يضعون الأحزمة ويبتسمون ويقودون سياراتهم بأدب، أمَّا الآن؟ مهزلة... أخبرك، كنتُ في نهارٍ جحيميٍّ أرتدي بزَّتي البيضاء التي سهرتُ الليل أُمرِّر الحديد عليها، حلقتُ الشعيرات التي نُثِرَت في وجهي بعد أن أودعت جسدي لماء فاتر، استعملتُ شامبو على جميع أعضاء، وحلَقتُ الشَّعر الذي ينبت في عانتي وبين إبطيَّ، كانت زوجتي تعدُّ لي إفطاري المفضَّل: بيض مسلوق، شايٌ بالنعناع، وماء الزهر. تردِّد خلف فيروز أغانيها، أتذكَّر أن جسدي مرَّ في ملابسي كاليوم الأول الذي قُبِلت فيه في كلية ضباط الشرطة، خرجتُ من المنزل يملؤني الأمل،ينتظرني زميلي في العمل لنخرج عند الساعة الثامنة صباحًا، الهواء في طرابلس يُغريك لقتل الكآبة في الصباح... اشترينا علبة سجائر وكوبَيْ قهوة من مقهى بشارع البلدية، كان الجو حميميًّا في المقهى الذي نادى صاحبه عليَّ قائلًا: «تفضَّل يا افندي... ربي يحفظكم يا أولاد»،

وحلف يمينًا بالله أن لا ندفع ثمن قهوتنا، مُخبِرًا إيَّانا أن رؤيتنا بقيافتنا وملابسنا الرسمية تُحتِّم عليه أن يُضيِّفنا، مرَّت الساعات الأولى كما يجب، رغم القليل من المنغِّصات، إحداهنَّ تحاول أن تتخطَّى الإشارة الحمراء أمام ناظِرَيْنا، زمامير السيارات المقلقة والمحتجَّة عند اقتراب الإشارة الخضراء، أحدهم يعرقل حركة المرور عندما يحاول أن يلتقط الأنفاس الأخيرة من الإشارة الخضراء فنوقفه ليعرقل سَيْرُ الجهات الأخرى، مشاكل بسيطة واعتيادية... ولولا وجودها لما كان لوجودنا من معنى، عندما اشتدَّت الظهيرة وأصبحت الشمس حارِقةً، سلَّمني زميلي الشَّارةَ وقال: «سأشعل سيجارة في السيارة وأعود إليك... تَعِبتُ، وعليَّ أن أرتاح قليلًا، دورك هو التالي»، ويا لَيتَه لم يَجِن دوري. الظهيرة هي أشدُّ مراحل العمل إرهاقًا، سيل من المتعجِّلين، روَّاد الأعمال وأصحاب الملايين الافتراضيُّون يريدون أن يلحقوا بأعمالهم المهمَّة، أنت تعرف هذا الشعب... إنه دائمًا مُتعجِّل، المشهد لم يَعُد يحتمل مأساويَّةً أكثر تَغلغُلًا من التي كان عليها، إحدى السيارات كانت Jeep، من تلك السيارات الأمريكية العالية، لم يكن بها شيء آخر سوى السَّواد... قرَّر سائقها أن يجتاز الجميع بعد أن ركب بالدواليب على الرصيف وأسرع ليفتح القفل لنفسه بعد محاولاتي العديدة لجعل الطريق مستقرَّة، أوقَفتُه... كان لزامًا عليَّ أن أوقفه وإلَّا سيصبح الأمر سيئًا جدًّا إلى تلك الدرجة التي لن أتمكَّن فيها وزميلي من حَلِّه، عندما نفختُ بصفَّارتي في زجاج سيارته المعتم، وأشَرتُ له بيدي بأن يتوقَّف، قرَّر أن يتحرَّك أسرع تِجاهي، وحمدًا لله أنه كان لي مُتَّسع من الوقت لأتفادى ضربته، أراد أن يترصَّدني، لم توقفه صفارتي ونداءاتي، توقَّفت سيارته بعد أن تمكَّن من الخروج من زحمة القفل، ومن ثَمَّ خرج، كان كائنًا غريبًا... شَعرُه ووجه يُشبهان الخروف، أخرج مسدَّسًا من خلف ملابسه وصوَّبه تجاهي، واتَّهمني بعدم أداء مَهامِّي جيدًا وسبَّ لي أمي وزوجتي وبناتي وأخواتي، كاد يطلق عليَّ الرصاص عندما سمعتُ صوت زميلي ينادي عليه: «خير يا ذئب؟»، فقام صاحب الشَّعر الخروفي بشرح المسألة من وجهة نظره: «ابن القحبة لا يلقي بالًا للرجال»، ومن ثم نادى زميلي باسمه، كان ابن خالته أو ابن عمته، قال له زميلي: «سامِحْه... الولد لَيِّن، وهو طريٌّ ولا يعرفك، وإلَّا لَمَا فعل فِعلَته»، وبعد أخذٍ ورَدٍّ منه والسلاح مُوجَّه تجاهي، هدأ سعار الذئب، وقال: «حسنًا... سأسامحه لأجلك هذه المرة، ولكن عليه ألَّا يريني وجهه مرتديًا بزة المرور مرَّةً أخرى، وإلَّا سيكون لي تصرُّفٌ آخر معه»، ثم وجَّه حديثه إليَّ: «لتعرف أننا أبناء ناس»، منذ ذلك اليوم... حرَقتُ بزَّتي، وانتظرتُ فرج الله.

– ما الذي فعلته بعدها؟

– لقد صار زميلي يعمل مع «الذئب»، توسَّط لي عنده... عندما رآني واقفًا أمامه قال لي: «أنت الذي أوقفني ذات مرَّة في الإشارة المرورية؟»، لم أجد أيَّة كلمة لأجيب عليه بها، قال لي: «لا يهم... ولتعرف أنني أخشى من قَطْع رزقك، أنت تعلم... «قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق»... يقول الرسول؛ لذا ستعمل عندي».

(د)

كانت واقفةً بجانب عامود الكهرباء المقارب لإشارة المرور، ترتدي محرَمةً سوداء تتخلَّلها بعضٌ من الأزهار الحمراء وعباءة خليجية تبدو فيها مع بَياض بشرتها الشاحبة كالحوت القاتل، عيناها المطفأتان تكادان تنضبان من آثار الدمع، تحمل لوحةً بها صورة شخصية لطفلٍ كُتِب فوقها «مفقود»، وفي الأسفل رقم هاتف تليفون لأيَّة معلومات، تمرُّ بجانبها السيارات وأصحابها المتحيِّرين الذين كان بعضهم يأخذوها على أنها شحَّاذة من كَمِّ البؤس الذي تحمله على عاتِقَيْها، تقف هنالك لوقتٍ طويل تمسك اللوحة وتوجِّهها ناحية زجاج السيارات، تبحث بين الأطفال خلف النوافذ عن الطفل صاحب الصورة، تردِّد كلماتٍ اعتادت عليها، كأنها شريط مُسجَّل: «بُنيَّ... رجاءً، بُنيَّ».

– لقد فقدتُ بُنيَّ، عند منتصف النهار اعتاد أن يسمع موسيقى سيارة الآيس كريم ليخرج من البيت مُسرِعًا تجاهها، إننا نعيش هناك –وأشارت إلى منزلٍ فارهٍ في حيٍّ راقٍ يُطلُّ على متحف ليبيا– تقف السيارة عند إحدى الأشجار لتستظلَّ وتسمع موسيقاها الجالبة للسعادة كل يوم عند الساعة الخامسة مساءً، ولأنها كانت تقف بالقرب من المنزل أمكن لبُنيَّ أن يسمع صوتها وهو يشاهد التلفاز، ويسرع ناحيتي أو ناحية والده يملؤه التشويق: «سيارة الآيس كريم. أريد الآن»، ويختطف المال من يدي اختطافًا ليشتري له «طربوشًا» من نكهة الفستق، كان يحب نكهة الفستق ويُفضِّلها على الشُّكلاطة والكرز والفراولة والڤانيليا، أحيانًا أعطيه ليشتري لي آيس كريم بنكهة الڤانيليا، لم يكن آيس كريم السيارة جيِّدًا البتَّة، لكن بُنيَّ أحبَّ الأجواء التي تعطيها له، ولربَّما تذوَّقَّها بطريقةٍ تُخالِف طريقتي، أن تسمع السيارة تغني لك وتخرج من الباب لتجدها واقفةً بألوانها وسارينتها، وتمثال طربوش الآيس كريم الخشبي فوقها، والصور على جسدها ووقفتك رغم صِغَرك تحاول أن تصل للرَّجُل الذي يرتدي القبعة والمريلة الحمراء ليقول لك مبتسمًا: «كم كُرَة؟ ما هي نكهتك؟»، كل ذلك يبعث عليه البهجة وحُبَّه لها؛ لهذا فقد كان كما قلتُ لك... ينتظرها يوميًّا، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي غادَرَت فيه موسيقى السيارة دون أن يعود بُنيَّ لي مُجدَّدًا يحمل الآيس كريم الذي يحاول أن يذوب ليتسرَّب إلى يده لقد اشتقتُ له، هل يمكن قد سرقه صاحب سيارة الآيس كريم؟ كنت أفكِّر في الأمر ذاته، لكن السيارة لم تتوقَّف عن العودة لذات المكان، ذات التوقيت إلى حيِّنا ليشتري منها بقية الأطفال، ربما صاحب السيارة متعاونٌ مع عصابة ما، وسيقتلون بُنيَّ، أخبرتُ والده بمخاوفي، قال بأنني امرأة مُتوهِّمة، وإلَّا لَما كان لصاحب السيارة الجرأة للعودة إلى الحي، مَن سيحتاج لدراهم الآيس كريم ويمكنه أن يقبض ثمن طفلنا أضعافًا؟ هذه كانت حجَّته، أرجوك... أوصل صوتي للناس، دعهم يُحقِّقون مع شركة صناعة الآيس كريم واستجواب كامل سائقيها، منظر بعضهم يوحي بالجريمة، إنني منذ أن غاب طفلي أركِّز في وجوههم وسحناتهم وطريقة تعامُلهم مع الأطفال، يبدون مُريبين... أرجوك، بُنيَّ... أرجوك.

(ذ)

تفحَّصَت المكان لتتأكَّد من أن كل شيء على ما يرام، قريبًا منها مجموعة من الشباب يجلسون على قارعة الطريق يتضاحكون، تتحرَّك أعينهم خلف كل أنثى، كأن مغناطيسًا ما داخل جسد الأنثى يجذبهم دون وعي منهم، تفحَّصَتهم قبل

أن تكمل مشيها، تنهَّدَت، تجمَّدَت، يداها ترتعشان، عيناها الحائرتان تبحثان في المكان عن رَجُلٍ أو شيخ، أو أي أحدٍ يمكنه حمايتها من خطر داهم، بَرحَت مكانها لدقائق قبل أن تُقرِّر العودة من الطريق الذي جاءت منه، قالت في صوتٍ يكاد أن يكون مجرَّد هَمهَمة:

– لم أشعر يومًا بالأمان، لقد تعرَّضتُ منذ طفولتي لحوادثَ شَتَّى ضد أنوثتي، خالي كان يلمس جسدي، يوحي المنظر لك من بعيد أنه يلاعبني، إلَّا أنَّ أصابعه كانت تختلس الوصول إلى أعضائي الخاصة. رجُلٌ من حَيِّنا حاول أن يغتصب طفولتي وأنا في العاشرة. عندما أصبحتُ في الخامسة عشرة أراد أبي أن يُزوِّجني من رَجُلٍ ثريٍّ، لولا اختطاف أمي لي وهربي معها إلى بيت جدِّي، حيث كان خالي يتفحَّصني بشهوةٍ مُقرِفة يمكنني أن أحسَّها من عينيه، لقد أصبحتُ خبيرةً في قراءة وجوه الرجال، حركاتهم وما توحي به أعينهم، هؤلاء الشباب تعرَّضوا لي أكثر من مرة، ولم أعُد أحتمل... أفكِّر بألَّا أخرج من غرفتي بعد اليوم.

(ر)

– يقولون إن وجهي جالِبٌ لسوء حظِّي، ما إن تحدث مصيبة، جريمة، حادثة سارقة أو شرف أو حتى حادث سير– كنتُ أوَّلَ إنسان يتمُّ الاشتباه به، لقد حلَلتُ ضيفًا على جميع الأجهزة الأمنية، تمَّ التحقيق معي عشرات المرات، حُبِستُ حبسًا اعتباطيًّا مرَّاتٍ أخرى، إلى أن يتمَّ القبض على المجرم الحقيقي، أنا مجرم فقط لأن وجهي مجرم، فكَّرتُ مرارًا أن أخدشه، أجرحه، وقيل لي إنني إذا فعلتُ ذلك فسيتم التأكُّد بعدها أنني مجرم حقيقي، الأمن والأمان هما أعدائي منذ أن تعرَّفتُ على سوء حظي، هل أريدهما أن يعودا؟ لا بالطبع، أنا الآن أعيش بحرية، لم يتجرَّأ أحد على احتجازي أو التحقيق معي منذ أن اختفَيا من البلاد، الجميع يخافونني الآن، ولأكُنْ صريحًا معك: أنا سعيد بذلك، ما الذي أحمله؟ لا شيء، هذا الشعب لا يحتاج لأن تحمل السلاح أو أن تكون مُجرِمًا في الحقيقة ليخافك، أقول لك الحقيقة... كل ما تحتاجه هو الإشاعة والسُّمعة.

(ز)

– قانيلَّا أم فراولة؟ سأل أحد الأطفال مبتسمًا وهو يمسك بالطربوش. حسنًا يا صديقي، ماذا أقول لك؟ كل ما آمله أن يعود كل شيء على ما يرام، حرام أن يعيش هذا الجيل في خوف –سلَّم الآيس كريم للطفل الذي كان يرتدي شورتًا أحمر قصيرًا، والدُّهنُ يلمع في جسده الصغير– إنهم شباب الغد، تخيَّل أن يكون لك جيل كامل يعيش بين دورَيْ الضَّحيَّة والمجرم، أحاول بقدر المستطاع أن أرسم البسمة على وجوههم، لقد سمعتُ بأحد زبائني الصغار قد تمَّ اختطافه ولم يهنأ لي بالٌ منذ ذلك اليوم، كان الطفل رائعًا بحقٍّ، عند الساعة الخامسة أتوقَّف في حَيِّهم ليأتي كل يوم مسرعًا ناحيتي يحاول اللحاق بالنافذة فأقترب منه، أكون قد جهَّزتُ له طلبه... كان حيويًّا، أَحَبَّ دائمًا نكهة الفستق، من مشاهدتي للأطفال

فإن الذين يحبُّون نكهة الفستق يكونون عفويّين ونشيطين، على عكس الذين يحبون نكهة الفراولة، الذين غالبًا ما يحملهم الخجل على التحدُّث بصعوبة، أصبحت خبيرًا بهم؛ لهذا أقول لك... لقد آلمني أن أسمع بغيابه عن أُمِّه، أرى المرأة يوميًّا أمام إشارة المرور تحمل صورته، لكن ما آلمني أكثر هو أنها شَكَّت في... لا يمكنني أبدًا فِعل ذلك. لِمَ لا يشكُّون في أولئك الذين يقفون في عتبات الطريق كذاك الشاب؟ إن منظره يبعث على الشُّبهة، بل لقد تقفَّيتُ وسَمعتُ أخباره، إنه خرّيج حبوس... لقد تمَّ سجنه مرَّاتٍ عديدة في جرائم مختلفة، أفكِّر في أن أخبر عنه أقربَ مركز شرطة، لكنهم أخبروني بأنَّه يشتمُّ الوشاة، وله معارف في الدولة يمكنهم أن يرسلوا له اسمي ووظيفتي ورقم هاتفي؛ لذا فأنت تعرف... الذي خاف سَلِم، هكذا يقول الأوائل.

(س)

– الذي لا يفعل شيئًا لا يمكن أن يصاب بأي سوء، هذه هي نظريتي في الحياة؛ لذا يمكنك أن تقول بأن أمنك وأمانك الشخصي يعتمد على ما تفعله بأيامك، أعرف رجُلًا قد خُطف ابنه الأيام الماضية، هل تعرف لماذا تمَّ اختطاف الفتى؟ إنه الآن يقبع في خفايا الجماعات المسلَّحة لأن والده قد جمع ماله بطريقة غير شرعية... لقد بدأ الرجل مسيرته في جمع المال عن طريق الرشاوي والسرقات وأكل أرزاق الناس، وها هو الله يعيد له ما صنعه بأن يُسرَق ابنه حتى يستلَّ منه كامل المال الحرام الذي سرقه، يمهل ولا يهمل... أنت تعرف. هناك فتاة تمَّ اغتصابها في الكلية؛ فقط لأنها كانت ترتدي الملابس اللاصقة، حتى إن نهدها أصبح له شخصية خاصَّة به، ينادي الشباب الجائع للنَّيك، هذا هو الأمر ببساطة، إذا أردتُ أن أحكي لك قصص كل أولئك الذين يدَّعون أنهم ضحايا الإرهاب والاغتصاب والاختطاف وحتى الابتزاز ستجد أنهم ليسوا ضحايا البتَّة بل ذئاب في ثياب أغنام، الأمن والأمان لم يتغيَّر البتَّة، أنا أعمل في جهاز مكافحة الجريمة، والجرائم التي تأتينا قبل الثورة هي ذاتها التي تأتينا الآن، أنتَ تعرف برنامج الأمن والمجتمع: سُرَّاق، مجرمين، مدمنين، عاهرات، قتلَة... ماذا تَغيَّر؟ لا شيء تقريبًا، كل ما هنالك أنَّ البعض يحمل عداءً للثورة المباركة إلى تلك الدرجة التي تجعله يروِّج الإشاعات لأنه يعرف أن هذا الشعب يُساق بالإشاعات، ولأوضِّح الأمر لك دعني أخبرك بقصَّة أحد المجرمين، كان سائقَ تاكسي، يملك سيارة نيبرا، ابن العاهرة كان يبتزُّ مِهنتَه ويُهرِّب البشر والمطلوبين للعدالة، ذات مرة كان قد اختطف امرأةً فرنسية ليقوم باغتصابها في استراحة أحد أصدقائه، هؤلاء هم السبب الرئيسي في غياب الفرنسيس وأمثالهم عن البلاد، أؤكِّد لك... وجدنا المرأة تبكي وتحكي كلمات غير مفهومة بالفرنسية، مُمزَّقة الملابس كانت، خافت من هالَتِنا، هل فهمت؟ أنا متأكِّد أنها شعرت بأن الليبيين جميعًا متشابهون بعد أن اختطفها سائق التاكسي، والآن ماذا يفعله السائق؟ إنه على شفا حُفرَة من الإفلاس لأن أغلب زبائنه كانوا من المسافرين من وإلى المطار، ها هو الله يَردُّ له الصاعَ صاعَيْن، لكنه لا يرتدع، فقد كدنا نقوم بالقبض عليه ذات يوم... كنتُ أعمل في دوريَّتي بإحدى البوابات، تفحَّصتُ وجهه وشَكَكتُ به، لقد نسيته تمامًا، إلَّا أن قلبي كان يقول لي إن هذا مجرم، أوقفته على قارعة الطريق، كان معه طفلٌ يحمل آيس كريم بالفستق، عرفت النكهة من لونها الأخضر، قلتُ له: «هل هذا ابنك؟»، أجاب بالإيجاب، لم أرتَحْ لإجابته؛ لذا أمطَرت عليه

الأسئلة، الفتى كان غارقًا في الآيس كريم خاصَّته، ولم يكن يبدو عليه أنه يسمع كلماتنا، هل كان هو نفسه الفتى المفقود؟ لم أتمكَّن من معرفة ذلك أبدًا... لقد أوقف أحد زملائي سيارةً مشبوهة لأحد الشباب كان بها ممنوعات؛ لذا قمتُ بإخلاء سبيله، بحثتُ عن الرجل لمدَّةٍ من الزمن في شوارع المدينة ولم أجده، فص ملح وذاب. ولكن... هيهات، لا تَخْشَ، فكما قلتُ لك، الدنيا تدور وتدور حتى تعود لتصنع بك ما صَنَعتَه أوَّلَ مرَّة، وسيسرق أحدُهم طِفلَه كما سرق طفلَ الرجل من أجل المال، الرجل الذي سرق المال من أجل أن يُطعِم ابنه... هل فَهِمت؟

(ش)

– الأمان؟ هاهاهاها... لقد حرقه الليبيون، ألم تسمع؟ صوَّب أحدهم مدفعيَّةً باتجاه المصرف واحترق كامِلًا... هاهاهاها... ظلَّ لساعات يحترق، وغطَّى الدخان المدينة ليوم بأكمله، ولماذا؟ لأنَّ أحدهم تَعارَك مع الأمن، هل فهمتَ النكتة؟ هاهاهاها.

(ص)

التبس عليه السؤال، تنحنح الرجل العجوز، وضع سيجارةً بين أسنانه المسجَّل بعضها في سِجلَّات الشمس لأسنان الحمير المطلوب منها تبديلها بأسنان الغزلان، مسح على شاربه الملوَّن بالأصفر في حوافِّه من تزويق الشاي له، لَمَّ قميصه الليبي السماويَّ، وصنع به بين فخذَيْه قطعةً جديدة يمسك بها، قال:

– أمان يا ربي أمان... آخر مرة سمعتها من جدِّي الذي كان يُتقِن التركية، قالها بعدما دخل الإيطاليون لقريتنا يدكُّون معاقل المجاهدين، وقالها عندما حاول قُطَّاع طُرُقٍ سرقة ملابسه صارخين في وجهه بأنه من الحكومة التي خانتهم وباعتهم للإيطاليين، تفحَّص وجه أحدهم، كان يشبه أولئك المجاهدين الذين طردهم الإيطاليون، ومنذ ذلك الوقت كان جَدِّي لا يتحدَّث إلا بالإيطالية، حتى ناداه الناس بال «مُتَطَلْيِن»– بدأ ينطقها «سيكيورتسا... سيكيورتسا»، لم يَعُد يعتمد أبدًا على أن يجد الأمان بين الناطقين بالعربية أو التركية، اعتقد ذلك لأن الجميع في ذلك الحين كانوا يخافون الإيطاليين، ما إن تسمع اللغة الإيطالية ستجد السكون والطمأنينة، ولم يتجرأ إلَّا المجانين من الاعتداء عليهم... جَدِّي المسكين اعتقد أن الخلاص في اللغة الإيطالية، وقع بين أيدي قُطَّاع الطُّرُق ذاتهم مرة أخرى... سحبوا منه لسانه أيضًا تلك المرة، ومن يومها لم أَعُد أسمعه يتحدَّث أبدًا، ولكن لم يَعُد أحدٌ يهتمُّ بسرقته بعدها.

أشعل الرجل العجوز سيجارته، ضحك... حدَّق في عجوزٍ لافَّةٍ الرِّداء الأبيض على جسدها تعبر الطريق بحذرٍ، ومَطَّ بشفاهه ومرَّر إصبعه على شاربه المعتَّق برائحة السجائر والشاي، ثم أضاف:

– أمان يا ربي أمان.

(ض)

صمتٌ حادٌّ في الساعة العاشرة مساءً، أضواء النيون الخاصة بالمحلات التجارية بدت وحيدةً دون رُوَّادها، لم يحمل الطريق على عاتقه سوى الحيوانات العابرة وفي هوائها أصوات رفرفة الخفافيش، الطريق الذي كان عامِرًا بالأضواء قبل عامين إلى الساعة الثانية مساءً صار خاويًا على عروشه، وكلُّ مَن في المنازل القريبة أطفأ أضواءه، سيارة مُعتِمة تمُرُّ بين الفينة والأخرى بسرعة. لم يكن هناك أحدٌ ليُعبِّر عن رأيه.

(ط)

– لا أخفي عليكَ... إننا نَمُرُّ بأوقات عصيبة، علينا على كل حال أن نمُرَّ بها، هذا امتحان من الله يختبر رباطة جأشنا والتحامنا وقدرتنا على التسامح، الأمن والأمان قضيتان بسيطتان جدًّا أمام القضية الكبرى، علينا جميعًا أن نتَّقي الله وأن نعود إليه، غير ذلك... لن يكون هناك أمن وأمانٌ البتَّة، هل تفقَّدتَ المساجد؟ إن بعضها خالٍ من المصلِّين. إنني لا أوَدُّ أن أقول لك بأن الأمر هو مجرَّد عقابٍ على تَركِنا للدين وجَرْيِنا وراء الدنيا، ولكن هذا هو الواقع، انظر... كل أولئك الذين تَحلُّ بهم المصائب هم من العُصاة، إن الله يمنحهم فرصة بأن يُكفِّروا عن ذنوبهم، إنه يمنحنا فرصة للتكفير عن ذنوبنا، وبماذا نقابل فُرَصه؟ بأن نترك مساجده وأن نصطفَّ على المصارف، أن نترك الدعاء له وننادي الكُفَّار من أحلاف الناتو لينقذونا، انظر إلى حال المسلمين، انظر إلى تفسُّخ الشباب وضياعهم، أعرف أختًا من الأخوات تعاني الأمرَّيْن من الشباب المنحرف، إنهم يتعرَّضون لها في الطريق كل يوم، حتى إنها أصبحت تفكِّر في العودة إلى الله، وألَّا تبرح منزلها... سترى بماذا سيقاضيها الله، أنا متأكِّد أنه سيفتح لها طريق الإيمان، وسيرزقها من حيث لا تحتسب، بدلًا من الذهاب إلى الدراسة والعمل، أعرف أحد الأخوة أيضًا يريد أن يعود لله بعد أن سرق أحدُهم سيَّارته... هل تعرف قصته؟ والده كان أحدَ أزلام النظام الكافر، وأراد أن يُكفِّر عن ذنوب والده، ورغم أنه لا زال يصارع الشيطان إلَّا أنه يحضر جلسات الفقه والتوعية التي نقوم بها في المسجد، يمكنك أن تأتي أيضًا، إنك مُرحَّبٌ بك متى ما شئت، وستتعرَّف على قصص كثيرة من أخوة عانوا من شرور الدنيا، والآن يعيشون في سلامٍ وأمان وطمأنينة مع أنفسهم، لماذا؟ لأن نور الله قد حلَّ على قلوبهم... إننا في امتحان يا أخي.

(ظ)

تحرَّكَت بسرعة، لم تتوقَّف لتسمع ما تبقَّى من السؤال، قبضت على اللحاف الأبيض الذي يُظهِر عينًا واحدة من عينيها، بيدها اليمنى التي يظهر منها خاتم ذهبيٌّ به زهرة توليب، سحبت جُثَّتها العجوز تريد أن تهرب من الإجابة، كادت أن تتعثَّر عندما ضرَبَت بقدمها حجرًا صغيرًا وُضِع في الطريق عمدًا أو دون دراية صاحبه، سَلِمَت من السقوط، زادت من سرعة خطواتها، كادت أن تُرخي الفراشية من هلعها، لا بُدَّ أنها لم تعتَدْ أبدًا على أن يستوقفها أحد في الطريق، مرَّت

بجانب أحد الشيوخ، كان يجلس بإحدى العتبات في زاوية من زوايا الرصيف، ضحك العجوز الذي كان يدخِّن سيجارته ومسح على شاربه قائلًا:

– أمان يا ربي أمان.

(ع)

– هل سنظهر على التلفاز؟ قالت وهي ترتِّب ملابسها.

– ربما... إذا كان المشروع جيِّدًا كفاية.

– إننا نعاني من انعدام الأمن والأمان؛ لأنَّ أعداء الثورة يريدون تخريبها، كل أولئك المجرمين الذين تسمع عنهم يدفع لهم أزلامُ النظام السابق المالَ ليخرِّبوا البلاد، ولتعتقد أمريكا والدول الأوروبية أن ليبيا دولةٌ سيِّئة؛ فيفكِّروا من جديد لاستعادة عهد الدكتاتورية، ولكن أقول لك إنهم لن يفلحوا في ذلك، إن لعبتهم مكشوفة... مؤامرتهم على أمنا وأماننا مكشوفة، إن أخي ثائرٌ، وهو يخبرني بأولئك المجرمين الذين يلقون القبض عليهم، أتعرف ما هو الأمر الذي يجمعهم؟ جميعهم كانوا من المتطوِّعين في قوات النظام السابق، ووجدوا صور للقذافي في أجهزتهم المحمولة، وينتمون لمدن وقبائل مشهورة بدعمها للنظام؛ لذا... فالأمر واضح، علينا أن نلقي القبض على كل الذين أيَّدوا القذافي في الثورة لأنهم قد يستلمون المال من الأزلام ليخرِّبوا البلاد وينشروا فيها الفساد، بعضهم يعملون سائقي تاكسي، بعضهم سائقي سيارات آيس كريم، بعضهم من الزنادقة أصحاب اللِّحَى، بعضهم من جهاز الشرطة، البعض الآخر من أبناء الأزلام. أعرف طفلًا يبيع السلاح في حَيِّنا، إنَّ والده كان صانِعًا للخمر، ووزَّع الخمر مجَّانًا لجميع المؤيِّدين للقذافي ليحتفلوا في باب العزيزية، أمرُّ كلَّ يوم من أمام الطفل لأجده يخبر أحدهم إن كان يريد سلاحًا أم لا، هل تصدِّق؟ طِفلٌ سمين بملابس مُتَّسِخة ووجه أسمر يقف في ظِلال حيِّنا ليسأل المارة ما إن كانوا يريدون سلاحًا. لقد أخبرتُ أخي عنه، وعندما دخل الثُّوَّار لبيت والده لم يجدوا شيئًا، إن لديهم سُبُلًا وطُرُقًا في معرفة ما سنقوم به، هل تعرف كيف كان يتحكَّم النظام السابق بليبيا؟ لقد كان يضع كاميرات وأجهزة تنصُّت في الشوارع والمنازل، ربما قد وزَّع المنظومات على أعوانه وأزلامه؛ ولهذا تَمكَّن تاجر السلاح من إخفاء الأدِلَّة جميعها، إنها مؤامرة... دول عظمى ومنظَّمات سرِّيَّة لا تريد لليبيا أن تنهض من جديد، إنَّنا نحن الليبيون أفضل شعوب العالم إذا تسنَّت لنا الفرصة سنعمل على بناء بلادنا واللحاق بركْب الدُّوَل المتقدِّمة في سنين معدودة.

(غ)

وقفَت أمام المقهى تبحث في المكان عن شخصٍ ما بالتحديد مرتديةً جُبَّةً بُنِّيَّة بها زخرفة على جيدها لدائرة تحوم حولها خمس بتلات، كتلك التي تجد الأطفال يرسمونها لشكل الزهرة. متلحِّفةً إيشاربها المتنافر الألوان، وممسكةً بدنانير في

يدها، مرَّت أمامها مجموعة من الشباب، استوقفَت أحدهم، أعطته النقود... انتظرت تراقب حركاته داخل المقهى، يسلِّم الكاشير النقود، يقف أمام الأسطى ومن ثَمَّ يأخذ كوبًا من القهوة ويعود إليها، سَلَّمها القهوة... شَكَرته وتحرَّكَت فَرِحَةً بإنجازها.

– أخاف المقاهي الشبابية، تعرَّضتُ داخِلَها لمحاولات تحرُّش... خصوصًا هذا المقهى، لطالما ألقى الكاشير عليَّ نظرات استفزازيَّة رغم منظري الذي يشبه أُمَّه، لكن ذلك لم يمنعه من مُغازَلتي بأعيُنِه، ومن ثَمَّ بلسانه، وأحيانًا بيده، أعرف أن عليَّ أن أبحث عن مقهًى آخر يُعدُّ النسكافيه، لكن لم أستطع ذلك،حاوَلتُ استبدالها مرَّاتٍ عديدة دون جدوى تُرجَى من ذلك؛ فالمقاهي التي زرتها جميعًا كان ينقصها عنصرٌ مهمٌّ لم أعرف كُنهَه إلَّا في هذا المقهى الشبابي كما أنَّ محاولاتي لصُنع نسكافيه جيد في البيت باءت بالفشل، عدا أنَّني لم أتمكَّن من الاستغناء عن الطَّعم اللذيذ لها، ولا الشعور والجو الذي تغمرني به، أنا ثلاثينيَّة عزباء... وعندما يصنع لي شيء صغير كهذا بهجةً تنسيني الكآبة التي أعيشها والنظرات الدونية التي أتلقَّاها في المنزل، في الشارع، في المدرسة –حيث أعمل–، وفي المناسبات الاجتماعية؛ فإنني لن أتمكَّن أبدًا من تركه، فبطريقةٍ أو بأخرى أنا مُمتنَّة جدًّا لهذا المقهى، رغم كل ما يحمله من تحقيرٍ دونيّ لجسدي الذي يذبل أمامهم دون أن يفكِّر أحدهم في خطبتي، لا أكذب عليك... في البداية كنتُ أستمتع بمغازلات الكاشير، وقد تعرَّفتُ عليه عن طريق الهاتف، لكنه لم يكن جادًّا أبدًا؛ إذ تجرَّأ ذات يوم للتحرُّش اللفظي، اعتقد أنِّي عاهِرة ككلِّ العاهرات اللائي قد يكون سمع بهنَّ، عزباء، ثلاثينية، وتقتلها كآبة التقدُّم في عمر دون رَجُلٍ يُسكِنها بيته إذا فيمكنها أن تعطيك ما تشتهيه فقط لتوفر لها الآمان لما تبقى من عمرها، هل أريد هذا النوع من الآمان؟ نعم، بل أحتاجه... لم أعد أشعر حتى بالآمان اتجاه أي شيء وأخاف أن أصل للأربعين لأخسر إنسانيتي وأتوحش، قل لي ما أنا فاعلة؟ لا أعرف.

(ف)

وهي عائدة من المدرسة أسرَعَت تجاه بائع البالونات الذي حفظَت مكانه وما يحمله الكشك الصغير من ألعاب، اهتاجت نفسها... أرادت دائمًا أن تشتري بالونة لنفسها، لم تكن تعجبها كل تلك البالونات التي يشتريها لها والداه، والتي لطالَما خيَّبت آمالها، جمَّعت مبلغًا ماليًّا من مصروف المدرسة جوَّعَت نفسها حتى يكون بين يديها، عرفت كم تحتاج من مالٍ لتشتري كل أنواع البالونات التي لدى البائع. كانت تجري تِجاهَه خائفةً من أن يغلق أو أن يحصل أي شيء يمنعها من أن تشتري بالوناتها اليوم، جَرَت جيدًا حتى إنَّ شَعرها الكيرلي انتفض من عقده ليفرَّ عكس اتجاهها –الذي تحاول أمُّها صباحًا ترويضه بتمرير الفيونكات لتصنع التسريحة التي لطالما سخر منه أخوها محب الآيس كريم مناديًا إياها «نعجة»–، عند وصولها للمحل التقطت أنفاسها وطلبت منه جميع الألوان من جميع أنواع البالونات التي لديه، تعجَّب الرجل من طلبها، لكنه انتقى لها ما تريد، وليُشعِرَها بالسعادة أخرج بالونًا كبيرة ونفخها بغاز الهِليوم، وربطها بخيط لأجلها، وقال لها: «هذه هديتي لك»، كان يعرف تلك الفتاة الصغيرة التي دائمًا ما تأتي وتسأل عن أنواع البالونات التي لديه، وضَعَت

حاجياتها في حقيبتها وأمسكت البالونة التي صنعها لها، عند خروجها من المحل، كانت تقفز وتغني بسعادة مدهشة، انقطعت سعادتها عندما صفرَت رصاصة بجانب أذنها لتُفَرقِع البالونة لتكسر زجاج نافذة المحل. خرج الرجل يهرع بعد أن سمع صوت فرقعة البالون، وجد الفتاة مُتجمِّدةً قد بالت على نفسها وخيط البالون لا زال في يدها مع بعض البقايا البلاستيكية، حدَّق في الزجاج المكسور، دخل للمحل ووجدها... كانت رصاصة مضادَّة للطائرات قد كُتب على رأسها «الذئب».

(ق)

– لقد مضى عامٌ منذ آخر مرة خرَجتُ فيها من البيت، حفظت جدراننا جميعها، هناك جدارٌ في خلفية المنزل تغطِّي عليه شجرة كرموس كبيرة كنتُ ألعب تحتها في طفولتي، لم أرَ ما قد كُتِب فيه منذ أن كنتُ في التاسعة وأنا الآن في منتصف العشرينات، أتذكَّر أنني قد كتبتُ على الجدار «أحب بلدي وقريتي... أحب أن أذهب إليها كل صيف مع أبي لأزور أبناء خالاتي»، ضحكتُ لما رأيتُ ما قد كتبه الصغير، أتعرف لِمَ؟ لأنني الآن أكره بلدي، وأمقت هويَّتي التي بُليتُ بها، والسبب أنني قبل عام قد تعرَّضتُ لحادثةٍ مُثيرَةٍ للشَّفقة؛ فقد كنت عائدًا من ليلة سُكرٍ مع الأصدقاء، كنَّا كلَّ خميس نذهب إلى مزرعة أحدهم لنشرب الخمر ونأكل المعكرونة ونصنع الشواء، وكانت تلك الليلة أروَعَها، القمر في أعلى السماء، الهدوء يعمُّ المكان، والهواء يعذِّبك بنسيم الربيع الليلي، قطرات الندى بدأت تنزل على الأشجار المحيطة والأصدقاء قد صمتوا في لحظة تجلٍّ بعد صخبٍ وغناء، إلى أن سمعنا حفلة بجانبنا لم تكن ككلِّ الحفلات، فقد كانت الحرب تدقُّ طبولها بين عدوَّيْن جاوَرَا بعضًا لأشهُر، حتى طفح صبر أحدهما على الآخر بعد أن قتلوا أحدَ أعوانه، قرَّرنا أن نعود لمنازلنا حتى لا يحدث ما لا يُحمَد عُقباه، كنَّا أربعة أو خمسة... لا أتذكَّر، لَمَمنا أنفسنا وركبنا سيَّارتيْنا؛ إذ انقسمنا إلى مجموعتَيْن وانطلقنا مُسرِعين نحو الطريق عند الساعة الثانية صباحًا، لم تكن هناك سيارات في الطريق عدا سيارتيْنا، خرجنا إلى الطريق العام واستقرَّ بنا الحال عند إحدى البوابات الأمنية، كنتُ في السيارة الثانية... خُذها منِّي نصيحةً، لا تركب أبدًا في السيارة الثانية، تَحادَثَت المجموعة الأولى مع الرَّجُل في البوَّابة لدقائق، ومن ثَمَّ انطلقوا سالِمين، استوقفنا نحن أيضًا، ونادى علينا بصوتٍ حجريٍّ، به العدوان: «بطاقات الهوية خاصَّتكم». سلَّم كلٌّ منَّا بطاقته، قرأ الرجل بطاقة أصدقائي، ومن ثم وصل إلى بطاقتي وقال: «أين هو صاحب هذه؟»، ونادى باسمي، قلت بهدوء مترقِّب: «أنا»، صرخ في جماعته ثم قال لي: «انزل يا ابن العاهرة»، وقال لأصدقائي: «اذهبوا، إلَّا إذا كنتم تريدون المبيتَ معه... هيا قبل أن أسجنكم بتُهمَة السُّكر أيُّها الحثالة». وأنتَ تعرف ما حدث بعد ذلك، ضرب، سبٌّ، تنكيل، بِتُّ لأيَّامٍ في ضيافتهم يعذبونني، كانوا يريدون أن يقايضوني بأحدهم، عرفتُ أن المعركة قد حدَثَت بينهم وبين مجموعة من قريتي. لم يأبه بي أحد، لقد كنتُ مجرَّد ابنٍ لتاجر ألعاب، وحفيدًا لرجُلٍ عجوز هربَ من بؤس القرية في عهد الإيطاليين ليعيش في طرابلس؛ لذلك عندما لم يجدوا لي فائدة تُرجَى أرادوا قتلي مرَّاتٍ عدَّة، لم يمسكوا بأحد من أبناء قريتي سواي ذلك اليوم؛ لذلك فقد كنتُ تَسليَتَهم الوحيدةَ، يستبدلون نيَّتهم في قتلي بضربي وتعذيبي وسبِّ أمي وقبيلتي وقريتي وكلِّ ما يَمتُّ لي بِصِلة، أتعرف كيف خرجتُ؟ لأنَّ الآمِرَ كان «ابن ناس»، ويُقدِّر

الرجال؛ فقال لي بعد أن نَفَدَ صبره من الحُثالة: «اذهب... لقد غفرتُ لكَ»، كان يُسمُّونه الذئب، أظهر لي رصاصةً كُتِبَ عليها «الذِّئب»، وقال: «احتَفِظْ بها... هذه ثمنك، لقد اشتريتُكَ منذ اليوم». أنا ابن بائع ألعاب، هل تعرف ما هي سخرية القدر؟ لقد كسَرَت رَصاصةٌ زُجاجَ محلِّ أبي، كُتب عليها «الذئب».

(ك)

جلس الجميع في المقهى يدخِّنون النرجيلة، السجائر وأرواحهم وضحكاتهم، صحبة الوقت، وزمامير السيارات، ذلك اليوم كانت هناك مناوشات بين كتيبتَيْن تابِعَتَيْن لوزارة الداخلية على بُعد كيلومتر واحد أو أقلَّ من ذلك، قيل إنَّ أحدهم استوقفته بوَّابةٌ من كتيبةٍ ليس مُواليًا لها... حدَثَت بعض الأحاديث بين الزملاء في وزارة الداخلية من مثيل: «زجاج السيارة... يجب أن تنزع اللاصق المعتم»، و»لِمَ يتعيَّن عليَّ ذلك؟»، و»لأننا قُلنا كذلك»، و»ها؟ مَن أنتم؟ أمَّا أنا فأعرف أنني لا أريد نزع اللاصق»، و»هل تَتَمَنيْك على الرجال؟»، و»الرِّجال؟»، وما تبقَّى من القصة... يسحب الواقف بالبوَّابة الأمنية على المستَوقَف السِّلاح، ويُدخِل الرصاصة في بيت النار، يصل المستَوقَف إلى ظهره، فيدخل رصاصته في بيت النار، وقبل أن تدخل تمامًا تتَّجه رصاصة البندقية في صدره ليسقط ميِّتًا، وتنتشر نيران الحرب والطلب بالثأر ومحاربة أبناء العاهرات، وفي خِضمِّ كلِّ ذلك كان الجميع: شيخٌ في سِنِّ السبعين، جالِسًا يدخِّن سيجارته، شبابٌ يرتدون أبهى الثياب، يحتسون القهوة ويدخلون في أحاديث عن القرقعة في سماءِ المدينة، نساء ورجال وأطفال يمرُّون من الطريق، وشيخ آخر يوزّع الفستق والسمينسة* واللوز لقاء دينار، يسحب عربته في أرجاء المقهى، والسيارات تزمّر لتتدافع في طُرُقات المدينة التي على عتبَةِ تَراقُصِ الدَّبَّابات، تحتفل بتساقُط الرَّصاصات في مياه بحرها.

(ل)

– الأمر ليس سيِّئًا الحقيقة، إنَّه نِسبيٌّ كما يُمكِنُك أن تقول... ماذا سيحدث لشخص فقير يملك سيارةً تبذل جهدًا تستحقُّ عليه جائزة لتُمكِّنها من أن تخرج سالِمةً من عصر الجماهير، فليبيا الغد، فالثورة، فالرَّخاء، فالحرب الأهلية، وقد حفظته طرقات المشاوير البسيطة التي يزجي وقته فيها بين بيته، مكان عمله كموظَّفٍ بائس في مؤسَّسة حكومية بائسة كهيئة البيئة أو المحافظة على التُّراث أو أي عمل هامشي آخر لا يهمُّ أحدًا وشوارع حَيِّه الهامشي، لم يختلط لا بالنظام ولا بالثُّوَّار ولا حتى بالعصابات، إنسان مُتَّكِئ على سور الله الذي
يكاد يسقط على رأسه، مواطن بسيطٌ جدًّا... ما الذي قد

يحدث له؟ لا شيء تقريبًا، إنَّه في أمنٍ وأمان بعيدًا عن طمع

الأيام فيه، فهي مُشفِقة على وقوفه لساعات أمام المصارف يبحث كيف يمكنه إسكات أفواه زوجته وأطفاله بالطعام، وفي المقابل... مَن يمتلك ميزة المال، الموقع الجيد أو السيئ حتى، إنَّ ذاك على الأيام أن تتمَنيّك عليه، كان الأمر كذلك منذ بدء هذه البلاد في أن تكون كما تعرفها الآن، أنا مواطن هامشيٌّ... لم أشعر يومًا بأنني مُعرَّض للخطر، على العكس، كنتُ أعيش يومي أفكِّر في لقمتي حتى أكاد أنسى همومي الأخرى، أُنهي العشيَّةَ أمام بيتي في الحارة، أُمرِّر الوقت في تغيير زيت سيارتي أو محاولة إصلاح عطب ما فيها، والأطفال يتحَلَّقون حولي، يلعبون بالطين وكُرَتهم التي توشَّحَت قطعَ القماش، جلد الدواليب ثقوبها ليستمرُّوا في لعبها، ليلي أمضيه صُحبةَ زوجتي وأبنائي أبحث في وجوههم التي -رغم نظافتها- تبدو قاهرةً للعين من انعكاس الثياب القديمة على سحناتهم الضعيفة، لأنام مُحارِبًا مؤخِّرَة زوجتي السمينة من عدد صغاري الذين خرجوا من كُسِّها، لأستيقظ هلِعًا على منظرها أيضًا.

(م)

- لم أشعر يومًا أن الديكتاتور قد وفَّر لي الأمن أبدًا، كان يوهِمنا بأن كل شيء على ما يرام... نعم، هذا ما فعله نظامه الذي شكَّلنا، عرف هويَّتنا، صَبَغها، نقش على أرواحنا وعقولنا، وجَّه نظراتنا وتحَكَّم في الاتجاهات والأشياء التي تراها أعيننا، القصص التي تسمعها آذاننا، الطعام الذي تتذوَّقه ألسِنتُنا، الحقيقة التي تتلمَّسها أيدينا والروائح التي تشتمُّها أنوفنا فتمكِّن من أن يجعلنا نعتقد بأننا جميعًا بخير، هل تعلم أنَّ ظهور قضبان الحديد في نوافذ المنازل الليبية كان في عصر الجماهير الذي يدَّعي الجميع بأنَّه كان أمنًا وأمانًا؟ هل تعرف ماذا يعني هذا؟ إن الدولة الليبية استحدَثَت لجانًا خاصَّةً بالإشاعات، ولجانًا خاصَّة بالاستخبارات، هل تعرف ماذا كنَّا نُسمِّيهم؟ «الوشواشات»، الناموس الذي يطير في أجوائنا، لا نأبه به، ينقل الكلام الذي نقوله، والأحاسيس التي نشعر بها لتُسجَّل في الأوراق الرسمية، كان يمكن لهم أن يكونوا أي شيء... مدرِّسون، حلَّاقون، بائعو خضروات، سائقو سيارات أجرة، مجانين، عاهرات، تلاميذ ومحامون وأطباء، كان الجميع يشكُّ في الجميع... لقد استحدث فينا صفةَ الشَّكِّ والمواراة والمواربة والنفاق؛ فوفَّر لنفسه أمنًا وأمانًا جعلنا نشعر بأنها من نعمه علينا، حمى نفسه منَّا بإيهامنا بأنه حامينا. ما الذي يحدث الآن، تقول؟ إنَّه كما قال القائد: «ينتهي الجهل... عندما يُقدَّم كل شيء على حقيقته».

(ن)

- لا أعرف أي شيء... أنا لست من هنا.

قال ثم حمل نيرانه ليوزّع الفحم على روَّاد المقهى مبتسمًا، يعمل على إسعادهم جميعًا حتى لا يتَّهِموه بأنه زنجيٌّ غبيٌّ.

(هـ)

– الحمد لله يا ربي... صحيح أنَّ الوضع متأزِّمٌ قليلًا، لكنَّ الله يحفظ البلاد والعباد ويهدِّئ الصدور، نحن شعب واحد، وعلينا أن نتَّحِد، ولولا سوء الفهم لَمَا كان سيحدث ما يحدث الآن، إنني على أملٍ، نعم... هناك دائمًا أمل فينا، نحن شعب طيب.

(و)

– الأجانب لا يريدون لنا أن نتقدَّم. إنهم يعلمون أننا إذا عشنا في استقرار ورخاء سنسبقهم في ظرف سنوات قليلة، إنهم يخافوننا... أقول لك؛ لهذا فهم متحكِّمون في حياتنا، وكل شيء نفعله بأمرهم، ثم إنهم متحالفون مع الشيطان والجن... أنت تعرف، لقد لبس البلادَ جِنٌّ، ولا زالت مَلعونةً، فلا يمكن تفسير كل ما يحدث إلَّا هكذا، انظر... لقد كثر المرضى النفسيُّون، وأعرف شيخًا قال لي بأنَّ حالات اللبس التي تأتي له أكثر من السابق، وغالبًا ما يكون صانع التعويذة في خارج البلاد، بأسماء أعجمية وفارسية ومغربية ومصرية وإفريقية... إنهم الأجانب أقول لك.

(ي)

توَشَّح ظلام ذلك الطريق الذي لا تسمع فيه حسيسًا سوى ما تعرضه عليك الكلاب بين الفينة والأخرى من نباح، وما تتركه أجنحة الخفَّاش بين الأشجار الممتدَّة على امتداده، أو احتراق الحشرات في مصابيح المحلَّات التجارية المغلقة، أو ما تعرضه الريح ناقِلةً الأكياسَ البلاستيكية ترقص في هدوء ووحشة الطريق، تحرَّك هو في جُنح الظلام، كان يحمل زجاجةَ بخَّاخ في يده، توقَّف أمام أحد الجدران حيث أحد أضواء الطريق كان يرفُّ مُحتضرًا، وكتب بخطٍّ كاريكاتيري:

«اللهم أدام عالينا نعمتا الأمني والآمانة هاهاها».

تاجوراء 2016

---

* السمينسة: بذور عبّاد الشمس.

العِراك

هزَّ فِراشَه دويُّ انفجار أسقط قشورَ الطِّلاء المعلَّقة منذ زمن تنتظر هِزَّةً أرضيَّة تُسقِطها، سقَطَت القشور على وجه الحاج صالح، سقطت صورته التي تُثبِت خلفه أنه زار البيت المقدس مُرتديًا ملابس الإحرام، ينظر بشموخ اللَّونَين: الأسود والأبيض إلى الكاميرا، سقَطَت الصورة، فانكسر الزجاج وتمزَّقَت. كان كل ذلك كفيلًا بأن يجعل الحاج يستيقظ هَلِعًا يتعوَّذ بالله من بؤس الرسائل التي اعتنى اعتناءً شديدًا بترجمتها: تكسُّر الزجاج، صهيل الأحصنة والمرأة. نذور شؤم. تَزحزَح من فراشه،حاول أن يوقظ زوجته، إلَّا أنَّه تذكَّر أنه قد دفنها منذ زمن طويلٍ، حاوَلَ فيه أبناؤه وبناته أن يُزوِّجوه من الحاجة خيرية التي تقطن البيت المقابل لبيته، دون فائدة. فتح النافذة، فرأى خيط دخان فاحِمٍ يُعانق عباب السماء، كان الدخان يكاد يخرج من شجرة الزيتون المباركة التي تتوسَّط الحيَّ –كانت تفصل بين الجزء الشرقيِّ والغربيِّ من الحيِّ–. خرج يدفعه الفضول الذي بدأ يخفتُ في سنينه الأخيرة قبل أن يَحدُث العِراك، فاشتعل رأسه فضولًا، وأحسَّ بالحياة تجري في عروقه من جديدٍ كأنَّه زار البيت المقدَّس من جديد، حيث يعود الإنسان كما ولَدَته أُمُّه. هذا هو الانفجار الثاني في الحيِّ، اليوم الماضي انفجَرَت عبوة غازٍ زرقاء أمام منزل الجِنرال. اختفت العبوة عند انفجارها فظلَّ الناس يبحثون عنها، انشغل الحاج صالح في البحث عن بقاياها في كل مكانٍ ليومٍ كامل: في القمامة، الأحراش، والزوايا التي لا يزورها أحدٌ، إلى أن عرف تفاصيلَ دقيقةً لم يعرفها منذ زمنٍ من سُكناه في الحي.

كان الناس قد تعبوا من العراك، لكنهم لم يتمكَّنوا من أن يعلنوا ذلك للجِنرال، كانوا يخافونه، رغم أنَّ خُطبَه الحماسيَّة فيهم كلَّ يوم لم تَصِل لواحدٍ منهم، كان الجِنرال منزوعَ الحنجرة، التي طالها السرطان فحَوَّلها لقطعة لحم مُتفحِّمة من السجائر والكحول، لم يترك له الخيار سوى لاستئصالها. ظلَّ الناس مُذَّاك يؤوِّلون حديثه، فبعضهم ظنَّ العراك سببه أنَّ الشنابو كان يتاجر بالكحول والمخدرات في الحيِّ، البعض ظنَّ أنَّ الجِنرال يحارب الشنابو لأنَّ الأخير لطالما أحبَّ أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين داخل الحي، وبالطبع كان دائمًا هنالك أولئك الذين يلقون بأحاديث عن كون الجِنرال يسعى للسيطرة على الحي، فوجد الشنابو عائقًا أمامه، بالإضافة إلى أن التأويلات لم تَخلُ من المشاكسين الذين أحبوا تبسيط حوادث الزمان وتتفيهها، قائلين إن العراك لم يكن ليحدث لو لم يَقُم الشنابو ببيع بوخة مغشوشة للجِنرال، تأويلات أخرى كانت دائمًا تظهر على السطح: وقوع أحد أبناء الجِنرال في حب بنت الشنابو؛ كون الشنابو لم يُبدِ الاحترام أبدًا للجِنرال، أو حتى بسبب البقعة المميَّزة من الظل التي تَهَبُها شجرة الزيتون لسيارة واحدة كي ترصف تحتها.

شهدت عينا ربيع الحادثة –وربيع هذا أذكى شباب الحيِّ، كان الوحيد الذي واصل دراسته للمرحلة الجامعية داخله–، رأى أحد أبناء الشنابو يجرجر بإحدى يدَيْه عبوة غازية قد ملأها الصَّدأ وغطَّى جسدها ببقايا الطعام الدَّبقة

والصمغ، ظلَّ يراقب الحدث وهو يمرُّ بفتى الشنابو، حتَّ خطاه لما اقترب الفتى من وضع العبوة الاسطوانية التي تسرِّب الغاز تحت جدار منزل الچنرال، ولما رآه يشعل قدَّاحته بدأ في الجَري مرتبكًا، قام بإشعال النار في العبوة، جرى الاثنان في طريقين متعاكِسَيْن، وانفجرت بعد ذلك بثوانٍ لتخرب جزءًا من الجدار، سقط الغزال الأبيض الذي كان يزيّن أعلاه. صُنِعَت فجوة داخله وتلوَّنَت الأحجار المخلَّفة من أثر الانفجار بالأسود، اشتعل حريق صغير في أكياس قشٍّ مليئة بالقمامة والفضلات، كان يُحضِّرها الچنرال لهجومٍ أراد به أن ينهي العراك، عشرين كيسًا مليئًا بفضلات الطعام، الورق المقوَّى، البلاستيك، نشارة الخشب، وكل ما استطاعوا إيجاده... احترقت خمسٌ منها، كان المفترض أن تحرق بيت الشنابو بأكمله، بخطَّةٍ مُحكَمة وضعها الچنرال.

راقبَت السيدة سعاد –مُعلِّمة الرياضيات في المدرسة الإعدادية– ما حدث. كانت تنشر الغسيل في سطحِ منزلها، تبحث لنفسها عن موقعٍ مُميَّز للرؤية وهي تشبك ملابس زوجها الداخلية في حبل الملابس، النار تأكل الأكياس، وأبناء الچنرال يجرون هلعين محاولين إطفاءها، بينما يقف هو من سقف منزله خلف ثكنة المراقبة التي اصطنعها يراقب بمنظاره العسكريّ بيتَ جاره الذي خفتت داخله كل حركة. تمنَّت السيدة سعاد أن تمتلك مثل منظاره؛ إذ لطالما استهوتها تلك الفكرة في مشاهدة ما يحدث داخل النوافذ الخشبية من حركات الشفاه، منظر الجارات وهُنَّ في ملابس البيت، أزواجهنَّ، أثاثهم، والحركات التي تحدث داخلها. ركَّزَت نظرها في جسد الچنرال الذي ارتدى قميصًا مفتوح الأزرار، طاقيته العسكرية وسرواله العسكريَّ، حول رقبته يلتفُّ شالٌ أحمر ليخفي المكان الذي هربت منه حنجرته. في عينيه كان يمكنها أن تتبيَّن ما يجول داخله.

ابتدأ العراك بأن أضاءت سماء الحي في الليل بنارٍ تحترق في خيش، الخيشُ في زجاجات المشروب الغازي، النارُ تعتلي الخيش بمساعدة زيت زيتونٍ بلديٍّ من غريان، تراقَصَت زجاجات المولوتوف في الليل من أعلى بيت الچنرال تحت ظُلمةٍ لا يضيئها إلا النجوم البعيدة، وحطَّت في كل مكان داخل باحة بيت الشنابو. كان شباب الحيِّ يجلسون في الليل في ساحةٍ يُدخِّنون السجائر، ويُمضون وقتهم في لعبِ الكروت والضحك والأحاديث الجنسية لما شاهد أحدهم روعة زجاجات المولوتوف وهي تتراقص في السماء، واحدةً تلو أخرى، فأوقفوا اللعب والكلمات، وأشعلوا سجائرهم، وشاهدوا المنظر مُعلِّقين بين تارة وأخرى، قال أحدهم:

– أجزم أنَّ الچنرال لم يُلقِ أيًّا من زجاجات مشروب «التبر».

– كيف سيتلقَّى الشنابو الحادثة؟. قال آخر، وهو يُمرِّر سيجارة «الرياضي» لآخَر.

– أراهن بسيجارتَيْ «رياضي» أن الشنابو لن يفرَّ. قال الذي يدخِّن السيجارة الآن متحدِّيًا بزهوٍ.

– الرهان حرام. قال آخر وهو يعتذر عن التدخين.

– أراهن بسيجارتيْن إضافيَّتين أن الرهان ليس حرامًا. أعاد المتحدِّي تَحدِّيه.

– لا يمكن لأحد أن يتخلَّى عن الطَّعم اللاذع واللون الأحمر الذي تصنعه «التِّبر» على الشفاه بعد وجبة غذاء جيدة. قال الأول ليعيد نسق الحديث لنقطة البداية.

أُحرِقَت شجرة النخل الوحيدة في باحة بيت الشنابو، اشتعلت أعراشها، وظنَّ الشباب أنَّ النخلة ستجري لتبحث عن مكانٍ تطفئ به شَعرها المشتعل نارًا، وارتفعت رائحةٌ كاحتراق الكحول من بيت الشنابو. كان هدف الچنرال واضحًا: النخلة تحتها مصنع الشنابو للكحول، أراد أن يشلَّ حركته، وأن يحصره في الزاوية، ويقطع عنه مصادرَ دَخلِه، الواحدة تلو الأخرى. سقطت أعراش النخل الواحدة تلو الأخرى تبكي وجع الأشجار عند احتراقها، خرج الشنابو وأبناؤه للباحة يلقون بالحجارة حيث عدوُّهم يشاهد احتراق مصنعهم. كانت السيدة سعاد تراقب من نافذتها في شقَّتها الشنابو، وشمٌ في يده اليمنى يتوهَّج في النار وهو يدخل في عراكٍ بالتحديق مع الچنرال، ثم يناديه دون أن تسمع ما يقوله. كان يمكن لشباب الحيِّ سَماع الكلمات التي كان يلقي بها الشنابو في أذن الچنرال: نزال رجال بينهما. لكن السيدة سعاد وهي تبدِّل ناظرَيْها بين العدوَّيْن، شاهَدَت الچنرال لا يلقي اعتبارًا للشنابو مُولِّيًا داخل بيته. منذ ذاك اليوم، تصاعَدَت الأحداث. غُلِّقَت نوافذ البيتَيْن، ولم يرَ أهلهما ضوء الشمس داخلهما، أراد الچنرال أن يستنزف قوى الشنابو، وأراد الشنابو أن يكسر ذراع الچنرال.

أُلقِيَت القمامة أمام بيت الشنابو لتحرمه من الخروج، أُحرِقَت عجلات سيارة الچنرال وكُسِّر زجاجها وصُبَّ الماء في مخزن البنزين؛ فأصبحت منذ ذلك اليوم مُتَّكَأً للمتسكِّعين تحت شجرة الزيتون، طعن الشريف الابن الأوسط للشنابو مُهنَّد ابن الچنرال صاحب الاثني عشر عامًا بالسِّكِّين في بطنه عندما كان يلقي بالقمامة أمام بيتهم، ناك عيسى –ابن الچنرال الأكبر– فطُّوم بنت الشنابو، لم يكن أحدٌ ليخبر هل فعلها غصبًا عنها أم برضًى منها، لكن عيسى وحده الذي كان يتباهى أنها أرادت ذلك. توالت الأحداث، يزداد عنف الچنرال، فيزداد تعنُّت الشنابو. كان الچنرال يشغِّل أبناءه، كُلًّا في مَهمَّة: عيسى لمراقبة بيت الشنابو ليلًا، مهنَّد يلقي بالقمامة أمام بوَّابة العدو، الحسن والحسين –التوأمان– للحراسة وافتعال المشاكل مع أبناء العدوِّ، والعَدوِّ نفسه.

كان الشباب يتذاكرون أخبار العراك كل ليلة، يراهنون بسجائرهم وكؤوس الشاي خاصَّتهم ودَورِهم في اللعب في التوقُّعات، التأويلات والتخمينات حول الأحداث، كان العراك وسيلةً لهم ليرفِّهوا عن أنفسهم قليلًا من عناء تقَلُّب صفحات الليل والنهار على ذات المشاهد؛ لذلك فقد أحبُّوا الحديث عنه، عن آراء رجال ونساء الحي وما شاهدوه وما يتوقَّعونه. شغلهم الأمر أشهرًا ثلاثةً، هي عمره قبل انفجار الاسطوانة الغازية في بيت الشنابو. في تيك الليلة أخبر أحدهم:

– أراهن أنَّ عيسى ينيك فطُّوم كلَّ ليلة. أراهن بعلبة سجائر كاملة.

– وكيف ستُثبِت ذلك؟ سأله أحد المتحذلقين.

– بيتنا يقابل البيتين، ليلة الغد. أنتم مدعوُّون على مأدبة عشاء ومشاهدة المباراة. قال.

– مباراة؟ سأل أحدهم. كان أغباهم.

– زُبْر عيسى ضد كُسِرّ فطُّوم. أجابه وهو يُمرِّر سيجارة «الرياضي» التي لا تنتهي من الاحتراق، ثابتة لا تسقط من الهباء شيئًا.

– سمعتُ أنَّ عيسى قد وقع في غرامها منذ أولى لياليه في الحراسة، شاهدها ترقص بنهدها اللذيذ مرتديةً تنُّورتها الوردية وقميصًا أبيض يُظهِر كتفها وذراعها البيضاء الناعمة، لا شبه لها بأمها أو أبيها. قال أحدهم.

– حدِّثنا المزيد. أخبره المراهِن.

– نعم حدِّثنا. قال آخر.

– نعم. قال ثالث.

– حسنًا، سأنقل الكلام عن أحد أصدقاء عيسى لتعرفوا أنَّ ما حدث هو الحقيقة بأذنها: في ليلة، كان عيسى يجلس في الثكنة يدخِّن سجائره بعيدًا عن أبيه الچنرال. أنتم تعرفون أن الچنرال يكره السجائر، صحيح؟ إنه رجل مُتناقِضٌ برأيي، فيُحكَى عنه أنَّه كان يدخِّن ثلاثًا وأربعًا من العُلَب قبل أن «تليِّل» الدنيا. وفي ضربة حظٍّ، وهو يراقب التحرُّكات داخل بيت الشنابو رآها. في غرفتها، تفتح النافذة التي ملَّت من إغلاقها، مرتديةً ما أخبرتكم أنها ترتديه، يمكنه من مكانه أن يرى نفور حلمتيْها في غشاء القميص الكتَّان. مصَّ لعابه الممزوج بالقهوة والسجائر يشاهدها ترقص في غرفتها مزهوَّةً. تُحرِّك يديها للأعلى فيتحرك نهداها أكثر. تنزل بهما حيث صدرها فتلامسه بغنجٍ كأنها تدرك أنَّه، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل. حتمًا هناك مَن يراقبها.

– الله يراقبها. قال ذاك الذي يعطي المواعظ الدينية دائمًا مُحرِّمًا الرهان عليهم.

– نعم: الله، والرقيبُ، والليل، والبدر، والنجوم، وعيسى... كانوا يراقبونها جميعًا. قال له، وأضاف: تُلامِس صدرها بلطافة، تعصره. عيسى يبحث عن لعابٍ يمتصُّه فيجد الصحراء في فمه، وتتلوَّن هي كالسراب بين عينيه، يحكمها جيِّدًا. تنزلُ فطُّوم بيديها إلى خصرها. تدور، كان يمكنه أن يرى مؤخِّرتها ترتاح في التنُّورة كزهرة النوَّار، ترمي به حبًّا بحركة مفاجئة تعلو فيه التنُّورة قليلًا ليرى تقوُّسَ الفخذين والتقائهما. يتوه عيسى. أخبرني صديقي أنَّه لم يستطِع المقاومة فرمى بحجرٍ إليها، حربٌ جديدة تقوم داخل حرب الچنرال والشنابو. حرب بين عيسى وفطُّوم.

– أتعلمون؟ أرجو أن يربح الشنابو العراك، إنَّ الچنرال بعد أن ذاق ملذَّات الحياة كلها يريد أن يحرمنا إيَّاها. قال أحدهم وهو يحاكُّ سرواله بين فخذيه، يدقُّ قلبه.

– الچنرال لا يريد حرماننا من أي شيء، إنَّ الأمر فقط تسوية حسابات بينه وبين الشنابو، تعرفون لسان الشنابو. إنَّه يقطع لحم الجمل كأنَّه قطعة جُبن. قال ثانٍ.

– فطُّوم... آه يا فطُّوم. قال أخير.

– لِنَعُد لقصتنا. قال القاص.

– أنتَ وقصصك، لا أعلم من أين تجد هذه القدرة على قَصِّها؟ هل في كتب أبيك؟. أراهن أنَّكَ وجدتها في كتب أبيك. قال له المراهن الذي لطالما أحبَّ التذاكي والرهان.

– بل أخبرتك أنني أقول لك أُذن الحقيقة. قال القاصُّ وأراد أن يستأنِف حديثه: قال لي صديق عيسى إنَّها عندما عرفته، أنزلت الخيط الذي يحمل قميصها الأبيض من على كتفها، وجعلته يرى نهدها الأيمن.

– أستغفر الله. سأعود للبيت، تصبحون على خير. قال الواعظ فيهم.

– تصبح على خير يا شيخ، حسنًا. تعلمون ماذا حدث بعد ذلك بأيام؟ لكم أن تتخيَّلوا كل شيء؛ لهذا... أضيف على الرهان علبةَ سجائر أخرى. أنهى القاصُّ حديثه.

– لكنني لا أصدق كلامكم، لا يمكن أن يفعل عيسى شيئًا كهذا. قال أغباهم.

– أنا أعرف أنّ فطُّوم يمكنها أن تفعل أكثر من ذلك، وهل تحسبون الچنرال يبتلي على الشنابو؛ إنَّ الرجل يبيع بناته. قال المراهن.

انزاح الحوار إلى جَدَلٍ عن العراك، ومَن سينتصر، مرَّ إذَّاك في ظُلُمات الليل الفتى مهنَّد ابن الچنرال يحمل أكياس القمامة ليضعها أمام بيت الشنابو، يلقي بالقمامة فوق الجبل الذي يعيق حركة الشنابو وأبنائه وبناته كلَّ صباح. لم يكُن الشنابو الطَّرفَ المستضعف، رغم أنَّ الچنرال قد حاصره، فقد اختطف في سواد الليل أبناؤه الثلاثة عيسى ابنَ الچنرال وأوجعوه ضربًا، ورَمَوْه فوق جبل القمامة، كما ملأ الدِّلاء التي كان يصبُّ فيها شراب «البوخة» ببَوْلِه وعائلته لمدَّة أسابيع ثلاثة ليصُبَّها على جدار بيت الچنرال. الأمر الذي دعا الحاجة مبروكة التي اشتهرت بأنها خصَّصَت جدولًا تزور فيه بيوت الحيِّ يوميًّا للاطِّلاع على أخبار ساكنيها برفقة عُكَّازها وقطتها البيضاء إلى شطب اسم الچنرال من قائمتها بعد أن اشتمَّت الرائحة النافذة على الجدار.

هذا وقد دوَّى اليوم انفجارٌ ثانٍ. اسطوانة غازية فجَّرَت ذلك الجدار وألصقت رائحة الحريق فيه بدلًا من رائحة البول. الانفجار الذي استفزَّ صوف أغنام الحاجَّة خيرية ليهتزَّ في اللحظة ذاتها التي ارتفعت فيه الاسطوانة للأعلى لتختفي، سقطت بعض أوراق شجرة الزيتون وانفتحت نوافذ المنزل المهترئ للحاجَّة، سقط كوب شراب النعناع الذي لطالما أحبَّت احتساءه بعد أن تهتمَّ بإفطار أغنامها،انكسر كوبها المحبوب؛ فانهار قلبها حزنًا عليه، ذلك النوع من الحزن الذي يجعلها تغضب. خرَجَت إلى عتبة بيتها ترفع يدها إلى الأعلى وتنهال بأدعيةٍ استعَصَى فهم معانيها على أهل الحي. صوتها يأكله الهواء الذي تحاول إدخاله إلى رئتيها، يلاحظها الحاج صالح وهو يراقب الحريق الناشب بعد أن سقطت صورته، يرى جِرمَها

الصغير كفأرٍ داخل ردائها الرفيع، لافَّةً إياه على رأسها تثبّته بكَمٍّ هائلٍ من الدبابيس على صدرها، عادت في مُخيّلته صورة أبنائه وبناته الذين أصرُّوا على أن يتزوَّج لما كانت هي في الستين وهو في السبعين من العمر. يحاول استنباط ما تقوله، كانت تَدعو على الفريقَيْن: اللهم هزَّ جلدهم كما هزُّوا صوف أغنامي. اكسر عظمهم كما كسروا كوب نعناعي. يضحك الحاج صالح، ويتحرَّك باتجاه بيت الچنرال.

عندما ولج البيت، كان الحريق قد شارف على الخُبُوِّ تحت رذاذ الماء، وكان الچنرال قد نزل من بُرجِه جالِسًا مُقابِلًا للفتحةِ التي أُنشِئت في جداره، سارِحًا بذهنه في خططٍ يرسمها. سلَّم الحاج، وجلس بجانبه يشرب الشاي. في صمتهما راقَبَا الحريق تخبو ناره، كان الحاج يعيد بعضًا من كلماتٍ إلى بطنه بعد أراد أن يطلقها تجري للهواء، ينصت للچنرال يتحدث بغضب عن العدوان الغاشم، يحاول أن يستلب من كلماته كلمةً واحدة يمكنه أن يفهمها دون تأويل. كان الحاج يراقب ملامح الچنرال والهيئة التي تصنَّعها في قلبه ليفهم ما يجول داخل الحشرجة التي يتحدَّث بها. إنَّه لا زال مُصمِّمًا على طرد عدوِّه من الحيِّ. قال الحاج بتردُّد:

– ربَّما، علينا أن ندعو للصلح. دعنا ندخل للرجل أنا والحاج مصباح وموسى المحروق ونحادث العقل داخله ليرحل.

– إنَّ المحروق خائن. هذا ما يؤمن به أبي. قال له عيسى.

– كيف؟ وجَّه الحاج سؤاله للچنرال.

– لقد اكتشَفتُ أنَّه يُهرِّب الطعام وما يحتاجه النَّذل في ظُلمَة الليلة. قال عيسى. حتى إنه صنع لهم حفرةً من بيته الملاصق لهم ليخرجوا منه بعد أن سَدَدنا الطريق عليهم. أضاف.

– وكيف اكتشفتَ ذلك؟ وجه الحاج السؤال الآن لعيسى.

– رأيت ظِلَّه بالأمس داخل باحة الشنابو.

– ظله؟

– نعم ظِلُّه... كان محروقًا مثله. قال عيسى.

حدَّق الحاج صالح في شجرة صنوبر فَتيَّة في بيت الچنرال، كان الحريق قد طالها فأحرق نصفها ليَبقى نصفُها الآخر وحده أخضرَ، محروقة كنصف وجه موسى. أفلح موسى المحروق في أن يتولَّى أمانة الجمعية الاستهلاكية للحي بعد أن كان يمضي ليالي شبابه كلها في سهرات طويلة مع رفيقه الشنابو، سمَّاه الناس المحروق تبعًا للَّيلَة التي أحرق فيها حساءُ المعكرونة وجهه السكران بشراب النعناع المسكر الذي أبدع الشنابو في صنعه، كان من المفروض على موسى أن ينتظر الطبيخ أن يغلي قبل أن يصبَّ المعكرونة، إلَّا أنه أراد أن يستكشف الأمر بأن غطَّس رأسه داخل الطنجرة. قرَّر منذ ذلك اليوم أن يتوقف عن الشراب، لكنه استمرَّ في السهر مع رفيقه. تذكَّر الحاج أن المحروق لم يأكل منذ ذلك اليوم المعكرونة، ولم يشرب

البوخة، بل قطع مؤونة المعكرونة على جميع أهل الحي الذين كانوا يشترونها من الجمعية، موزّعهم الوحيد. عانى الأهالي الأمرَّيْن من انقطاع المعكرونة عنهم، وترَجَّوه أن يعيدها. ذلك اليوم جعلهم يقسمون جميعًا ألَّا يُقضَى أمرٌ في الحي إلَّا بمشورته؛ فتمكَّن من التحكُّم فيه، حتى جاء الچنرال للحي. فكَّر الحاج أنَّ موسى لديه سبب مُقنِع في مساعدة رفيقه، فمنذ أن جاء الچنرال تخلَّوا عنه، وانقلبت موازين القوى، ولم يأخذوا بمشورته أبدًا.

– لكن موسى يمثِّل الطرف الذي قد يسمع الشنابو كلامه. قال الحاجُّ مُبرِّرًا اختياره ناظِرًا للچنرال.

العراك غيَّر كل شيء في الحيِّ، كانت بوخة النعناع التي يبيعها الشنابو لشباب الحيِّ مَلجَأهم وسُكرَهم الوحيد، أحرق الچنرال مصنعها فاهتاج الشباب وبحثوا عن أشياء جديدة يمضون بها أيامهم، بعضهم –كالواعظ– وجَدَ في الصلاة داخل المسجد سُكرَه، الآخرون بحثوا عن مُسكِرات جديدة: حشيش، مُلمِّعات الأحذية، البنزين... أمَّا مشروبات السعال والكحول الطبي فقد فرَغَت الصيدلية منها بسبب الطلب المتزايد عليها.

نهض الحاج صالح يحمل همَّ الحي على كتفيه، ترك رِجلَيْه للطريق تأخذه كما تشاءان، مرَّ بجانب أنور الحوتة –بائع السمك– وهو ينادي: «حوت... حوت»، «سردينا... كوالي»، ليضيّع الحرف الأخير من كل كلمة في صدره، يقف على صندوق سيارته «البيچو» المصاب بانبعاجات في هيكله، البيچو... السيارة التي زادت من سُعار العراك بين العائلتَيْن؛ إذ كان أنور في أحدَ أيامه في ذات المكان والوقت يجري وراء سيارته الأطفال وتناديه النساء ويغذّيه الناس بإحساسٍ بأهمية ما يصنعه، ينزل من سيارته ليقف تحت الشمس ورائحة البحر ومِلحه تقشِّر وجهه، تبرق سحنته الشبيهة بدِلاء النحاس من تحت قبَّعة من القش، اعتاد دائمًا أن يقف بالقرب من شجرة الزيتون، يُحدِث ضَجَّةً في الحي. ويبدأ عملية البيع خاصَّته، يبيع أولى سمكاته للسيدة سعاد، يبتسم ابتسامةً تحمل نوايا لا تعلمها إلا هي، وهو يلهو حدَثَت ضجَّةٌ بالقرب. كان عيسى ابن الچنرال قد دخل في مشادَّةٍ كلامية مع أحد أبناء الشنابو، هيثم. كان هيثم أكثر أبناء الشنابو شبهًا بأبيه، خرج من البيت ونظَّف جبل القمامة وجلس في ذاك النهار ينتظر أبناء الچنرال يحتسي القهوة ويدخِّن سجائره. مرَّ به عيسى فقال له:

– ما الذي أخرجَكَ من حضن أمك أيها الفتى؟

– الذي أخرج أبناء الفاسدة.

– ادخل وارضع من ثدي أمِّكَ الفاسدة.

ذلك العراك قد اشتبَكَت فيه الأيادي، وانغرست السكاكين في الأجساد، وتَمدَّد ليصل إلى أنور الحوَّات وسيارته، فيُفسِد المتعاركان سَمَكَه، يلقي كُلُّ واحد منهما صندوق سمكٍ على الآخر، فتقع السمكات على التراب، يدخل العراك أخوة الفريقين، فتُلكَمُ الوجوه، وترتفع العِصيُّ الخشبية والحديدية، وتتفادى الضربات لتقع على هيكل البيچو، يغضب أنور؛ فيدخل العراك، ويسبُّ آلهة الفريقين، كلًّا على حِدَة، يتطاير الدم البشري على السَّمك على التراب، تُحلِّق المسبَّات

والكلمات في الهواء لتدخل آذان أهل الحيّ: نساءً ورجالًا، تحاول النساء -إلَّا السيدة سعاد- أن تغلق آذانها عنها. يُخرِج أنور هراوته فيضرب كلَّ مَن يراه من الفريقين، يتحوَّل العراك إلى عراك أطرافٍ ثلاثة، ينضمُّ له. يتشابك سمك السردين مع أقدام المتعاركين، وزجاج البيجو مع سواعدهم، ووجه أنور الحوَّات مع لكماتهم، ورذاذ اللعاب المندفع كرصاص مع مسبَّاتهم، وأجساد أهل الحيّ تدور حولهم، يحاول بعضهم إيقاف العراك، والبعض الآخر يدفع بالأجساد إلى داخل حلبة العراك مجدَّدًا، يتوقف كل شيء بعد أن تنطلق رصاصة من مسدس الچنرال في السماء، ليحلَّ السكونُ المكان. يركب أنور سابًّا الرَّجُل وأبناءه، ويتَّجه إلى مركز الشرطة، يجد رئيس المركز جالسًا على كرسيِّه، تعلو الحائط الذي يتَّكِئ عليه صورة القائد يبتسم من قبَّعته العسكرية. يخبره بالقصة كاملة: كم استمرَّ العراك، وكيف صار الحي ميدانًا يتحدَّى مكانة الدولة وهيبتها بعد أن تقلَّد چنرال متقاعِدٌ الحُكمَ فيه. قال له رئيس الشرطة:

– الشعب يحكم نفسه بنفسه.

– والسُّلطة والثروة والسلاح في يد الشعب، نعم... على عيني ورأسي ولكن. قال أنور.

– ولكن ماذا؟ قال رئيس المركز وهو يشرب الشاي وينصت للمذياع.

– ولكن ماذا سيقول القائد إذا سمعك تتهكَّم عليه ولا تؤدِّب الخارجين عن سُلطَة الشعب؟ قال أنور.

– ماذا تقول أيها الـ...؟ قال الرئيس غاضبًا.

– أقول، إنَّ لديَّ اتصالًا بمكتب اللجان الثورية. يُهدِّده أنور. أريد أن أفتح محضرًا. أخبره.

ذلك اليوم، أدَّبَت الشرطة فيه أبناء الچنرال والشنابو، وضعتهم في زنزانة لثماني ليالٍ، أدَّبوهم بالعِصيِّ والكهرباء والماء. ذلك اليوم، شعر أنور بالرِّضى تجاه نفسه وانتقم لسيارته المغتصبة. خرج الفتيان المتعاركون من السجن قبل أن يُفجِّر عيسى بيت الشنابو باسطوانة غازية تخترق غرفة فطُّوم لتُرديها جريحةً في المستشفى، وقبل أن يُفجِّر هيثم الاسطوانة الأخرى ليحرق شجرة الصنوبر ويشعل الحريق في بيت الچنرال.

كان الرجال يجلسون في مضافة الشنابو: الحاج صالح بهيبته الدينية، الحاج مصباح بهيبته الليبية، وموسى المحروق بهيبته الاقتصادية. لنصف ساعة، كانوا يجولون بأنظارهم في المضافة، ينتظرون أن يتحدَّث أيُّ شخص كانتظاره للشاي، لم يكن الحاج مصباح ليبدأ الحديث إلَّا بعد أن يرتشف الشاي، أخبره الحاج صالح أن عليهم أن يحلُّوا المسألة بشايٍ أو من دونه، إلَّا أنه كان مستعدًّا لأن يَنشُب عراكٌ آخر لو لم يتذوَّق مرارة السائل الأسود. كان الشنابو يتوسَّط المكان يدخِّن سجائره المهرَّبة، يحدِّق في باب المضافة ويتغنَّى بأهزوجة، الحاج مصباح يقول في همس للحاج صالح:

– إذا لم يأتِ الشايُ بعد خمس دقائق، سنخرج.

– ما الفائدة في انتظار الشاي؟ قال له الحاج صالح.

– الشاي مهمٌّ، لم أحضر مصالحة في حياتي دون شاي. قال الحاج مصباح.

– سأدعوك لجلسة شاي في منزلي بعد أن ننتهي من الأمر. قال له الحاج صالح.

– لا، الشاي قبل المصالحة، ليس نفسه بعدها. أصرَّ الحاج مصباح.

– حسنًا. دعني أحادث موسى. قال الحاج صالح.

كان موسى المحروق رغم كونه فردًا من أفراد البعثة إلَّا أنه يجلس بالقرب من رفيقه يدخِّن صُحبتَه السجائر، ينساب الدخان فوق وجهه المحروق بهدوء. قال الحاج صالح بصوتٍ عالٍ:

– يا موسى، بكم الشاي في الجمعية؟

– ربع الكيلو بدينارَيْن، لكن لا أعتقد أن الشهر القادم سيكون هنالك شاي في الجمعية يا حاج؛ لذا فأنصحك بأن تقتصد. قال موسى المحروق.

– إننا نقتصد كفاية في كل شيء كما تعلم، لكن... لا أستطيع التخلّي عن المذاق المرِّ للشاي. أستطيع أن أتنازل على كل شيء الآن من أجل رشفة واحدة... رشفة واحدة فقط، أليس كذلك يا حاج مصباح؟ قال الحاج.

– رشفة واحدة؟ هل جُنِنتَ؟ أنا أرتشف كأسَين قبل كلِّ عقدٍ للمصالحة. قال الحاج مصباح مباشِرًا وأسنانه الصفراء من أثر الشاي تلمع في الغرفة.

– ليس عندنا شاي يا حاج مصباح، صديقك حَرَمنا كل شيء. قال له الشنابو بصوته الغليظ، يرفع يده للأعلى ليتَّضِح الوشم في الساعد كُتِب عليه «خدُّوجة» اسم عشيقةٍ قديمة له.

– صديقي؟ أنا الحاج مصباح... وإن كان الجميع يدَّعون صداقتي إلَّا أنني لست صديقًا لأحد، أنا دائمًا في الحياد. وإن كنتَ تريد رأيي أريدُكَ أنتَ والرجل خارجَ الحي الآن. قال الحاج مصباح وهو يتذكَّر حاجته الرهيبة لكأس شاي. كان كالمخدَّر.

– على رسلِكَ يا حاج. نحن نريد الصُّلح، لا نريد صناعة مشكلة أخرى، خصوصًا أن يكون سببها كأس شاي. قال الحاج صالح.

«سأَقتُل من أجل كأس شاي»، تمتم الحاج مصباح بالكلمات في فمه دون أن يسمعها أحد. استمرَّ الاجتماع نصف ساعة أخرى، كان أهل الحي ينتظرون فيها القرار الذي سيخرج من عتبات الباب، انتظروا وحملوا تأخُّر أعضاء الوفد كلَّ محمَل، الچنرال يقف في عتبة منزله، السيدة سعاد تلاحق الچنرال بنظرات من سقف منزلها، الشباب في الساحة يدخنون السجائر بعيدًا، يحاولون الرهان بنجاح الصُّلح من عدمه، الحاجة المبروكة تمرُّ من جانب بيت الچنرال واضعةً إصبعها على

أنفها، الحاجة نجيَّة تدعو الله وهي تلملم أجزاء الكوب المتكسِّر، أنور الحوَّات وقد انفضَّ عن بيعه ليدخل ضمن الجمع المتحلِّقين تحت شجرة الزيتون ينتظر مثلهم. ربيع قد عاد للتوِّ من الجامعة، يمرُّ بجانب الجمع مخفضًا رأسه، الجميع يترقَّبون.

خرجت هاماتهم. قال الحاج مصباح للناس:

– الرجل قال إنَّه ليس لديه شاي.

– الرجل لا يريد الخروج من منزله. أضاف الحاج صالح.

– هل أجد شايًا عند أحدكم؟ قال الحاج مصباح متناسيًا أمر الصلح.

استقبل الچنرال الخبر بقبضة يدٍ تضغط أظافره فيها على جلده، مرَّت في رأسه أفكارٌ عِدَّة. قال موسى المحروق الذي خرج بعد الرجلين ليقول:

– إنَّ الشنابو يقول بأن الأمل الوحيد لتوَقُّف هذا العراك هو بأن يغادر الچنرال الحي. إنه يراه الدخيل، كما أنه يرى بأن الحي كان يعيش في رَغَدٍ وراحة قبل أن يستوطنه هو. «الجميع كانوا سعداء». قال.

وظلَّ موسى المحروق يخطب في الناس بلسان الشنابو، يضيف رأيه الشخصي وينسبه له. هبَّ أحد أبناء الچنرال لإسكاته، إلَّا أنَّ الحاج مصباح –الذي لا زال غاضبًا بسبب الشاي– أوقفه. ولج الچنرال منزله. لحق به أبناؤه، لم تَذُب سوى دقائق قليلة في الوقت حتى خرج من جديد يحمل مسدسه وخلفه أبناؤه الثلاثة: عيسى والحسن والحسين– يحملون الهراوات، عازمين على اقتحام بيت الشنابو. وإذ ذاك حدث ما حدث، أدخل الحاج صالح الحاجَّ مصباح منزله، وأعدَّ له كأس شاي، ربح المراهن عُلبَتَيْ سجائر من شباب الحيِّ، وقصَّ لهم القاصُّ عن سبب شغف الحاج مصباح بالشاي، بكى ربيع في غرفته لأنه أخفق في امتحان الرياضيات الذي لم يستطع الدراسة له بسبب العراك الناشب، امتصَّت السيدة سعاد رائحةَ الحوت عن شفةِ أنور الحوَّات الذي اختلس فرصته ليلج بيتها بعيدًا عن زوجها المهموم بمشاغل العمل، ومضغت الحاجة خيرية «النَّفَّة»* لتهدأ أعصابها بدلًا من شراب النعناع الذي حلَفَت ألَّا تشرب منه بعد أن تكسَّر كوبها. وأخرج الچنرال الشنابو من الحيِّ محمولًا على نَعشٍ.

تونس 2017

---

* النفّة: السعيط، مخدّر يُستنشق بالأنف.

رحلة إلى تونس، أو الموت

كان جالسًا يتناول كؤوسًا من الجعَّة عندما أطَلَّ فيلم رديء على فيسبوك بشرح مُعقَّد لم يفهم منه إلا أن رجُلًا ما تعرَّض للرماية، مشهد الدم الذي تلطَّخَت به الشاشة الزجاجية كان سوريالِيًّا. يقف شابٌّ ليس له ملامح واضحة –بسبب الجودة الرديئة للفلم– على سورٍ مليء بثقوب العيارات النارية، بالقرب منه يقف رجُلٌ يرتدي بنطالًا عسكريًّا أخضر، وقميصًا عليه صورة چيڤارا، ويضع على رأسه قُبَّعة عسكرية يخرج من جوانبها شَعرُه المجعَّد. تعرَّف عليه فورًا. كان الجندي مُمسِكًا بمسدَّسٍ ويصوِّب فوهته الى وجه الشاب الواقف. يصيح به: «أوقف باهي»، يحاول الشاب أن يتمالك نفسه من الارتعاش والوقوف مستقيمًا، يطلق الجندي رصاصة بجانب رأسه، فلا تعرف هل كان يحسُّ بالموت يدخل جسده الآن، أم أن عقله قد غاب عن الوعي بكل ما يحدث حوله. كيف كان يسمع صوت الرصاصة بجانب أذنه، بالريح التي هبَّ معها، برائحة النار، بأصابع مَلاك الموت تمازحه. صوت من الخلف ينادي الجندي «أقتل الزَّب فيسع»، يضحك الجندي ثم يسأل الشاب «تعرف تشهد والَّا لا؟– خوذلك دقيقة هيْ، باش تعرفني ترَّاس للزَّب معاك». حلَّت ثوانٍ من الصمت، ثم صوت رصاصة أخرى، عمَّ بعدها السكوت مُجدَّدًا. يجري المصوِّر صوب القتيل، وتقترب عدسة الكاميرا من وجهه. ملامح ملطَّخة بالدم.

ظلت السيارة تشقُّ الطريق المتكسر والأفق يحمل في كبده دخانًا في كل الاتجاهات، الموسيقى ترتفع من الحافلة المكتظَّة بالركاب المسافرين لتونس. تونس الأم الحنون لكل الليبيين، البلد التي يفرغون فيها طفولتهم وعربدتهم، يسيرون في طرقاتها عُراةً، ينفلت شيطانهم الذي يمسكون به كل يوم بقبضة أيديهم، يتحرَّكون فيها بلا توازن، ويتكلَّمون فيها بلا توازن، ويضحكون فيها بلا توازن، ويحبون الفتيات العاشقات للحرية بلا توازن، ويمسكون بيومها بأكمله بافتعال الكحول، وبالطبع بلا توازن. هي المستشفى النفسية والطبية لهم، من دونها سيمتلئون بالعُقَد، وسيتحوَّلون لوحوشٍ ضارية تمشي على الأرض بحثًا دومًا عن فريسة تأكلها وهي نيئة، وما يفعلونه في تونس يبقى دائمًا في تونس، هم لا يوردونه لبلادهم، يَدَعونه هناك، فيعشقون الميني سكيرت في تونس، ويلعنونه في بلادهم، ويعشقون رائحة ڤودكا تونس فيطلقونها بأفواههم في الشارع، ويخفونها كبحًا في بلادهم، ويتركون شياطينهم تلهو مع الأجساد البضَّة في تونس، ويمسكونه في بلادهم بقوَّةٍ، حتى تنفلت شراينه. تخيَّلْهم يعيشون من دونها، تخيَّل وحشًا محبوسًا في قفص لزمن طويل قبل أن يُترك، ماذا سيفعل؟

بعيدًا عن تونس، وقريبًا من الموت، كانت السيارة تشقُّ الطريق عندما لاحت في القريب نقطةٌ أمنيَّة، كان الجميع متوتِّرين؛ ففي منطقة حربية كهذه لا يمكن التكهُّن بماهيَّة النقطة الأمنية، ومَن الجهة التي تديرها. كان الحديث بين أحد الرُّكَّاب والسائق يدور حول الرجوع من الطريق والبحث عن طريق أخرى يمكن العبور منها بعيدًا عن هذا الاتجاه...

– ارجع يا سوَّاق...

– ما تشوفش في أم المدفعية اللي موجَّهة اتجاهنا؟ حاطينها زينة هكّي؟

كان أحد الركاب يمتلك جهاز «چي بي إس»، وهو مَن قادهم إلى هذه الطريق، تكلَّم عن ثقة:

– حتّي بعاد عليها، ماشيين في الطريق الصح.

– وكان نتناكوا في جرته جهازك؟ قال السائق منزعجًا من تفوُّق جهاز «چي بي إس» على خبرته.

ظلَّ السائق يقود الحافلة حيث نقطة اللا عودة، كان الجِنُّ –وهو أحد الركاب– مُنكَمِشًا على نفسه، ويحدِّق في وجوه الركاب تارة، ومن ثَمَّ يطيل التحديق في السيارات المسلَّحة التي بدأت تقترب، وقبل أن يدرك أنهم وقعوا في شَرَكٍ ما يسمُّونه بوَّابة وهمية، وهي ذلك النوع من النقاط المتخصِّصة في السرقة والخطف والقتل، كانت الحافلة قد وصَلَت النقطة؛ فأسرع يخبِّئ جهاز النَّقَّال الخاص به وماله في أماكن حَدسَ أنهم لن يصلوا إليها، ولكنَّ ذكاءه خانه عندما أطلَّ على نافذته أحدُ المسلَّحين وهو يضحك ساخِرًا منه.

– فاش إدّس يا قوّاد؟

ابتسم الجِنُّ وقال: آه؟ لا شي، غير نساوي في حوايجي.

– باهي إنزل توَّ نساويهملك أنا.

كانت البوَّابة الوهمية متوشِّحةً بالسواد، مجموعة من الرجال المسلحين، بعضهم يرتدي بناطيل چينز، وآخرون يرتدون بناطيل عسكرية، كانوا عشرة رجال، وسيارة تحمل مدفعيَّةً بها اثنان، وسيارتان أُخرَيان تحملان مدفعَ صواريخ مُضاد للطائرات، سور عالٍ يُطلُّ على البحر، ومثقوب في كل مكان، يحمل على عاتقه عبارات الدم: «لا نرحم من خاننا»، «الموت للخَوَنة»، رائحة الجُثَث المخلوطة بالنفايات كانت تَنفَذ إليهم من وراء السور، عبارة «ممنوع وضع القمامة» مكتوبة في كل مكان بعربيَّةٍ ركيكة، ولا وجود لأعلامٍ تُوضِّح مَن هؤلاء المُسلَّحون، كانوا منتشرين ومصابين بالهياج كالكلاب المسعورة التي تبحث عمَّن تعضُّ. اصطفَّ الركاب والسائق أمام الحافلة، تقدَّم نحوهم مُلثَّمٌ حامِلًا على ظهره كلاشنكوف، ومُمسِكًا في يده بكيس أسود.

– هيَّا... اللي عنده نقَّال يحطَّه في الشِّكارة والَّا نفرغ الكلاشن في دماغه.

هلع الجميع يبحثون عن أجهزتهم، يفتِّشون عن حياتهم، العَرَق يتصبَّب منهم، وهاجس اقتراب الموت في كل ثانية بعد أخرى يخيفهم. كان الجِن أيضًا مستسلمًا لما يحدث، ناداه الملثَّم: «انت، خوذ منهم نقَّالاتهم»، أسرع الجِنُّ يُحرِّض البقية أن يسلِّموا أجهزتهم المحمولة، «هيَّا يا ولاد، اللي عنده نقَّال يجيبه»، ظل الملثَّم واقفًا ينتظر إلى أن سَلَّمه الجنُّ الكيسَ الممتلئ بالأجهزة المحمولة، أمر صاحب القبعة العسكرية الملثَّم أن يفتِّشهم، ثم نظر نحوهم وصاح: «عالأرض انت ويَّاه»، أسرعوا في

الجُثوّ على الأرض، بينما تَحرَّك الملثم نحوهم وبدأ بتفتيشهم واحدًا تلو الآخر. كان الجِن واقفًا بعيدًا عن باقي الركاب، وكأنه صار من المسلَّحين، يتحدث مع صاحب القُبَّعة العسكرية مُحاوِلًا إقناعه بأن يتركهم وشأنهم. سأله صاحب القبعة العسكرية:

– انت من وين؟

أخرج جواز سفره وقال: مِن هْني، عندي عيت جدِّي.

تفحَّص صاحب القبعة العسكرية الجواز، ومن ثَمَّ رماه في وجهه.

– رغم إنّي ما صدقتكش، لكن باهي وخلاص، جيبلي اللابتوبَّات منهم.

كان الملثَّم في هذه الأثناء يفتِّش الراكب، الواحد بعد الآخر. أحد الركاب كان طبيبًا يحمل معه مبلغًا ماليًّا كبيرًا، وجهه يكاد يدركه الموت، نظر إليه الملثَّم وقال: «فرّغ شنطتك»، أسرع الطبيب يفرغ حقيبته.

– ما شاء الله ما شاء الله، علاش ما طلعتاش اللب تيوب متاعك؟ انت من وين؟ وين ماشي بيهم الفلوس هاذم كلهم؟.

ولم يقدر الطبيب على إجابة أي سؤال.

– أنت خلّيك بروحك يا زامل.

أخرج الملثم مسدَّسه وأطلق رصاصة على وجه الطبيب، ثم انتقل يجمع المال ويتفحَّص هويات الآخرين. كان الجِنُّ في ذلك الوقت قد تلبَّس شخصية المسلَّحين بالكامل، يتكلَّم مع هذا، وينفِّذ أوامر ذاك، سلَّم الملثَّمُ المالَ لصاحب القبعة، والذي قال لهم بعدها بنبرة ضاحكة:

– غير صحيح هكي يا ولاد، أنتم ماشيين تسكروا وتنيكوا في تونس، وحني هْني ينيك فينا النحاس.

سيارة إسعاف كانت قادمةً بسرعة نحو البوابة، نظر الجِنُّ تجاهها وقال في سِرِّه «أرجوك، لا تكوني مُحمَّلة بالموتى»، كان بعيدًا عن الرُّكّاب، والذين أصبحت تراودهم وساوس أن الجِنَّ أحد هؤلاء المسلَّحين، وأنه قد يكون هو المدبِّر لهذه العملية الدنيئة، نظر الجِنُّ إليهم فأحسَّ بشكوكهم تجاهه، قال في سِرِّه: «لو ما قتلوناش، ممكن يقتلوني الزوامل»؛ فهو الوحيد الذي لم يجبره الملثَّمُ على إخراج جهازه المحمول، ولا حتى ماله. أخيرًا قال صاحب القبعة للرُّكّاب الجاثمين:

– شوفوا، أنا بندير فيكم خير، باش تعرفوني قدَّاش قدر، حناخذ من كل واحد منكم جزء من المبلغ، وبروا انتو لتونس اسكروا ونيكوا زي ما تِبُّوا.

وصار يقتطع جزءًا من مال كلٍّ منهم ويوزّع عليهم صدقاته. كانت سيارة الإسعاف قد وصَلَت، أسرع إليها المسلَّحون، وفتحوا صندوقها، بينما نزل السائق منها غاضبًا وانطلق فورًا ناحية الرُّكّاب.

– اقتلوا زكمهم كلهم ولاد القحبة، مش خير من التريس اللي ماتت في الجبهة...

كانت سيارة الإسعاف ممتلئةً بالجُثَث، أيدي وأقدام القتلى بملابسهم العسكرية الممرَّغة بالتراب والدم، وجوه لا يتَّضح منها إلا الأفواه المفتوحة، صدمة الموت. أخرج سائق سيارة الإسعاف مسدسه وأطلقه ناحية الركاب، مرَّت الرصاصة كالجنون دون أن تُدرِكَ أيًّا منهم، أمسك سائق سيارة الإسعاف بالجِنّ وجرَّه إلى السور.

– توّ نصفّيهم واحد واحد. وأطلق تحت قدميه رصاصة. ها شن رايك في الرصاص؟ مش بنته أقوى من الويسكي؟

أوقفه صاحب القبعة بأن حجز بينهما، شعر صاحب القبَّعة بالامتنان للجِنّ لقاء مساعدته، كما أحسَّ الجنُّ بالامتنان له قبل أن يبول في سرواله، قال صاحب القبعة لسائق حافلة الركاب:

– توًّا تطلع وتْشد الطريق، تْولّي والّا تمشي بالشوية حنيكك بالأربعطاش. ووجَّه أحد راكبي مضاد الطائرات المدفع نحو الحافلة.

أسرع المسافرون في الركوب، نظر الجِنُّ إلى البوابة قبل أن يركب. كانت سيارة قد توقَّفت في البوابة للتوَّقِ، وبها شابٌّ يسافر لوحده.

كان في الحمَّام يفرغ مثانته من كمية الجعَّة التي شربها، ويحاول أن يتعرف على وجه القتيل الذي رآه في الفيلم. مرَّ شريط البوابة الوهمية في رأسه، لحظة ركوبه للسيارة، كان هناك شاب بملامح طفولية ووجه يبعث على الحياة، كان منطلقًا لتونس ربما، أوقفه صاحب القبعة الذي أخبرهم بأنه سيصنع بهم معروفًا، ثم مرَّ برأسه الشريط، كان شابًّا بملامح طفولية تبعث على الحياة، رغم رداءة جودة الفلم، يتعرَّض للرمي برصاصة، ثم يسقط جُثَّةً هامدة بلا حراك، وفوق رأسه عبارة «ممنوع وضع القمامة».

تاجوراء 2014

قصة المحطة 69

(اللامبة)

في باحة المحطة 69 يمكنني أن أنظر إلى السماء وأعُدَّ النجوم الساطعة؛ من فرطِ الظلام المحيط بنا.

مضى زمن لم أرَ فيه النجوم بهذا السطوع، كانت هناك محاولات قليلة للاستمتاع بمنظرها في ليل المدينة عندما بدأت النجوم الأرضية المسلَّطة في وجه السماء بالخفوت، لكن بعد ذلك لم يجرؤ أحد على النظر إلى الأعلى، طأطأ الناس رؤوسهم.

يبدو عملي في المحطة 69 قديمًا قِدَم ثلاثة نجوم متلاحِقَة في السماء، لم أعُد أذكر أوَّلَ أيامي عندما دخلتُ للصندوق الحجري منزوع النوافذ مدهوشًا من الآلات الكهربائية التي تعمل على مدار الساعة دون توقُّف، أجهزة حاسوب وصناديق إلكترونية تتوزَّع في الجدران تُشعُّ منها مصابيح خضراء وحمراء وصفراء صغيرة، كان العرفي بجِرمِهِ الضِّفدعيّ يقفزُ من صندوقٍ إلى آخر، يغلق مفتاحًا فيفتح آخر، عائدًا إلى شاشة الحاسوب يتتبَّع خيوطًا وإشارات لا أفهمها، يرنُّ هاتف قديم عبارة عن علبة سوداء تتحرَّك دائرة بلاستيكية في أوسطها حول مجموعة من الأرقام، يلتقطُ العرفي السَّمَّاعة، كان وحده المصرَّح له بحمل السمَّاعة، يخرجُ صوت حديدي، خَشِن، كارتطام الصفيح يتحدَّثُ معه، ينظرُ العرفي للصناديق الكهربائية قبل أن يُنهي المكاملة بكلمة «حاضر»، ويتجه نحو أحد الصناديق، يقرأ الحروف الموجودة على أحد المفاتيح، يغلقه. واجهتُ في البداية صعوبات عديدة في فهم طبيعة العمل في المحطة، خصوصًا أنني لم أكن جيِّدًا كفاية في المدرسة الابتدائية لأحفظ تشكيل الحروف، كما أنني لم أتلقَّ أية تعليمات أو إرشادات عامَّة بما يجب عليَّ فِعلُه، قال لي ابن عمي: «اذهب للمحطة، لقد عُيِّنتَ فيها، وتعلَّم الحِرفَة»، وفعلت، منذ أن دخلتُ المحطة أغلق الحارس علينا البوَّابة وأخبرني بأنَّه يتعيَّن عليَّ انتظار حتى بداية الأسبوع ليعود ليفتحها لنا، أحيانًا يعود في بداية الأسبوع فنرجعُ للمنزل، وأحيانًا لا يعود إلَّا بعد أسبوعين أو ثلاثة، وبهذا كنتُ أعمل أسبوعًا بآخر في المحطة، أو كما شاء لنا الحارس، أتتبَّع تعليمات العرفي، «أغلق ذلك المفتاح»، «افتَحْ ذلك المفتاح». ما الذي نعمله في المحطة 69؟ لم أكن أعرفه، ما الذي تفعله كل هذه الأنظمة والمفاتيح والأجهزة؟ إن كانت الجرذان التي تعيش معنا فيها تعرف، فأنا أعرف. كان عملًا، وأنت تعرف ما هو العمل.

لكن كل شيء تغيَّر في لحظة، لم أكن أريده أن يتغيَّر، أمضيتُ زمنًا بدون عملٍ، وكنتُ سعيدًا أن أكون مجرَّدَ حمار ينهق في المحطة من أجل المال، لكن ذلك الأسبوع الصيفي الحارق الذي أمضيته في البيت دون كهرباء تحفرُ زوجتي في أذني نقيقها المخلوط بزمجرة المولِّدات في بيوت الجيران جعلني أفكِّر في عملي، لقد كان أسبوعًا سيِّئًا جدًّا، صدِّقْني، الحياة فيه

داعرة، فاسدة برائحة لحمِ الدجاج الفاسد في الفريزر والخضروات التالفة في الثلاجة، لَزِجة بالعَرَق يلتصقُ بالمخدَّة فيلتصقُ جسدي بها، بلزوجة الأطفال وهم يضيّقون عليَّ القعود بحثًا عن نسمة، كانت حارقةً، زادتها الاضطرابات التي شهدها الحي بحرق بعض الشباب الإطارات كل يوم في الطريق العام تحت نافذة بيتي، أشاهدهم من شرفتي بينما أرى أحدهم مرتديًا زيَّ دُبٍّ يرقص أمام السيارات العالقة في الطريق تبحث عن مَخرَج فتزيد من عذاب المشهد اليومي، شاب في زيِّ دُبٍّ يرقصُ أمام السيارات حامِلًا لافتة «تسقطُ الحكومة»، بينما يبتسم الدُّبُّ. هذه كانت البداية.

(الكاتب)

حاولتُ في البداية أن أرسم ابتسامةً على شفتيَّ كما يفعل صديقي الشاعر القديم قِدَمَ هذه الأرض، وأن أرى أبعدَ من قِصَر نظري، «على الأقل، سأتمكَّن من رؤية النجوم»، قلتُ لنفسي في البداية دون أن تكون لي أي علاقة مسبقة معها، «حسنًا، مُتَّسَعٌ من الوقت لقراءة كل الكتب التي أجَّلتُ قراءتها»، ضحكتُ على نفسي، أنا الكاتب الذي مضى زمن طويل منذ آخر مرَّة أمسك فيها كتابًا، الاستمتاع بحكايات وأحاديث الأصدقاء، ممارسة التأمُّل، استغلال الوقت لتَعلُّم الزراعة والعناية بالنباتات والطبخ وتَعلُّم أبجديات الحياة من جديد، شيء لطالما أراد لي الشاعر القديم أن أفعل، سأخفض مستوى التوقُّع وأرفع منسوب الرَّوعة بالتَّأمُّل في أزِقَّة المدينة ورائعاتها، قرارات وضعتها خصوصًا بعد خسارتي لعملي من أجل قُبلَة اختطفتها من إحدى الموظَّفات المعجبات بالقصائد التي كنتُ أستعيرها من صديقي الشاعر، تمكَّنتُ من متابعة هذا الجدول متهرِّبًا من كتابة هذه القصة بالذات، حتى جاء ذاك الأسبوع الذي جرَّبتُ فيه أن أقلي بيضةً على رخام الشرفة بعد نَفاد الغاز ونَفاد صبري الممزوج بنوبات هستيرية من الضحك وزمجرات غاضبة ألقِّنُ فيها الجدران درسًا بلكمات أسدِّدها لها في كل مرَّةٍ ينطفئ فيها المصباح ويعود للعمل فيها، كنتُ كقطعة چيلاطي تذوب من فرطِ الحرارة، عاريًا تمامًا، مؤخِّرتي الرجولية القبيحة مُلقاة أمام المكيِّف، مُغمًى عليَّ، أنتظر أن يُغنِّي تلك النغمة المحبَّبة إلى قلبي، يَنُّ فأفرح، تمضي ثانيتان فينطفئ؛ فأسبُّ كلَّ مَن له علاقة بالموضوع، من رئيس الحكومة إلى الموظف الذي يعتاش على صيانة إحدى سيارات الحكومة العائدة للستينيات العاهرة. يئنُّ الصوت من جديد، فأُجدِّد إيماني بالله والوطن والشعب، ونفسي. تمرُّ نفخة برد بسيطة على جلدي الملقى على الأرض، تمضي هذه المرة سِتُّ ثوانٍ قبل أن ينطفئ كلُّ شيء مرة أخرى؛ فأكفر، وأحمل سكينًا خياليَّةً أريد بها قتل أمي، يئنُّ المكيف، ورغم التشكُّك والقلق إلَّا أنَّ ابتسامة لطيفة طفولية ترتسم على وجهي فأشكر الموظف الذي يعمل على إصلاح الأمر، وأدعو الله بقلبٍ خالِصٍ أن يُدخِلَه الجنة هو وأهله، إلَّا عَمَّه الذي يكرهه، يستمرُّ تدفُّق الهواء البارد على جسدي هذه المرة، أرقص وأغنِّي وأرتدي ملابسي، ألوح جسدي تحت البرد، وأنسى الساعات القاسية التي أمضيتها قبل ذلك، ولكن لم يستمرَّ الأمر كثيرًا.

أمضيتُ أسبوعًا على هذا النحو، أسبوعا خسيسًا خِسَّة السياسيين وأتباعهم، الذين صاروا كالجرذان يغزون المدينة، لكنَّ موقفًا واحدًا جعلني أدفع باب الشقة وأنهمر في كتابة هذه القصة، موقفٌ واحد فقط جرحني وقتلني، كان يومًا مأساويًّا حاولتُ فيه التغلُّب على أعصابي، وبعد محاولات عديدة للاتصال بالأصدقاء دون وجود شبكة تمكَّنتُ بأعجوبة

بأن أُنسِّق لجلسة مسائية لشرب القهوة وسبِّ البلاد والعباد مع بعض النِّكات السيئة وتخيُّل الفتيات الجميلات بمؤخِّراتهنَّ وهُنَّ فوقنا، دخلتُ الحمام، غسلتُ جسدي جيِّدًا أنزع عنه رائحة العرق والقلق والنَّزق والعَلق وبقية الخلق، ارتديتُ أجمل ملابسي، قميصي الوردي الذي احتفظتُ به مكويًّا لأسبوعين لمناسبةٍ كهذه، أخرجتُ من صندوق العطور المستهلكة زجاجةً كنتُ قد تركتها هناك في حال حصولي على موعدٍ غرامي مع «نور»، جميلة حيِّ الرئيس، التي تنعمُ مؤخِّرتُها بالتكييف، بخختُ من العطر، كنتُ أغني للحياة والأمل، نزلتُ سعيدًا لسيارتي التي احتضنتها بعد أسبوع من عدم قيادتها نظرًا لازدحام محطَّات البنزين، كنتُ أُخزِّن الوقود للمشاوير المهمَّة، وصار في ذلك اليوم مشوار القهوة والسجائر والحديث مع الأصدقاء أهمَّ ما لديَّ في حياتي، شغَّلتُ السيارة، وفتحت النافذة، وانطلقت، بدا الأمر على ما يُرام حتى أوقفني ازدحامٌ مروريٌّ في الطريق، «لا عليك، لا عليك... مُجرَّد ازدحام مروري، ورغم أن الشمس قارَبَت على الغروب ووجود هذا الازدحام في هذا التوقيت هو أمرٌ غير منطقي، ولكن لا عليك، هاك اغرس سيجارةً في فَمِكَ واهدأ، ستستمتع بالحياة قريبًا، هي دقائق، نصف ساعة على الأكثر»، قلتُ لنفسي، ولكن النصف ساعة صارت ساعة، المسافة بين السيارات كالمسافة بين الظفر واللحمة، وكان يمكنني سماع أحاديث جيراني، شابَّان لطيفان يتحدثان عن الحياة والعمل والطموح، وأنَّ البلاد سينقذها شبابها، ابتسمتُ لسماع كلماتهما المحفِّزة، وأَسِفتُ على مصيرهما الذي سينال منهما بعد سنوات من الآن، رجل يلعن اليوم الذي تزوَّج فيه، مُزَمِّرًا في وجه زوجته الجالسة كدجاجةٍ مُحرَجة أمام كلبٍ مسعور، يقول لها بأنَّ اليوم بالذات لم يكن اليوم المناسب للذهاب لأهلها الملاعين، كنتُ سأخبره أن يحترم المرأة، ولكن مَن أنا لكي أنادي بحقوق المرأة في بلاد كهذه، لم يَعُد الأمر منطقيًّا، ما دمتُ أقلَّ المتعذِّبين في هذه الأرض، لا داعي للنظر فيمن يتعذَّب معي فيها، هذا شعاري. تثاقل الوقت، صارت الساعة ساعتين، وصار كل شيء يُزعِجني، انتهت علبة السجائر، أحاديث الجيران في سياراتهم تنخر أذنيَّ، السيارة خلفي تزمّر وتحُثُّني على المرور في الطريق الدَّاعرة، الشمس غربت، لاحظت لأول مرة كبوة دخان ضخمة آتية من مقدِّمة الطريق، ضاقت الطريق وضاق الحال، مرَّ الوقت كضيفٍ ثقيل، حتى فُرِجَت، رأيته، المشهد الذي استفزَّني على اقتراف هذه الفِعلة، مجموعة من الشباب قد أغلقوا الطريق العام بدواليب سيارات وعِصيٍّ وجريد وحجارة أشعلوا النار فيها، كانت النار عالية وحارقة، تعرَّق قميصي الوردي، ونضج رأسي، احترَقَت أعصابي، كان أحد الشباب مرتديًا زيَّ دُبٍّ بُنِّيٍّ يرقص أمام السيارات، حامِلًا ورقة «تسقط الحكومة»، ولكن عندما جاء دوري في التخلُّص من الازدحام والمرور من جانبهم في فتحة صغيرة، قفز الدُّبُّ البُنِّيُّ على سيارتي، وبدأ يهزُّها ويهزُّني معها، صار يرقصُ أمامها ويغني و... يتمنيك.

عندها عرفتُ أنَّ عليَّ أن أكتب هذه القصة الحقيرة، هذه القصة التي ستذهب في تاريخ أسوأ قصصي. هذه الـ...

(العرف)

اسكت أيها السافل الحقير، شعب عديم الحياء والتقدير.

أعرف كُلَّ مَن يقطن هذه المعمورة، ويمكنني الجزم بأنهم تجمُّعٌ من مُنعَدِمي الكرامة والمنحطِّين والسافلين، ابن بطوطة نفسه قال بأنه بين الأزهر والزيتونة قَومٌ رِعاع، ماذا تريد دليلًا تاريخيًّا أكثر من هذا؟ إنهم حيوانات، مجموعة من الذئاب المتنكِّرة في أثواب الحملان، اسمع، إنهم لا يستحقُّون الشفقة، وأنا العرفي، أعرف الناس فيهم، اسمع مني وستنجح في هذه الحياة.

لقد ورَّطتَني في أن أقول لك الحقيقة، ليس لأنَّ لديَّ ضميرًا حيًّا وأخاف على الوطن وأريد للجميع أن يعرفوا الحقيقة وراء المحطة 69، وما إلى ذلك من الهراء الذي تتلقَّفونه كل يوم من مؤخِّرات أجهزة الإعلام والكُتَّاب الصعاليك الوقحين أمثاله، ولكن فقط ليستمرَّ النظام وننعم بنَسَق عَملٍ آمِنٍ ومستقرٍّ. اسمع، ماذا تريد؟ أن يبقى بيتك مضيئًا طيلة الوقت؟ تمَّ، فقط توقَّفْ عمَّا تقوم به، ستنهار الشبكة إذا استمررنا فيما نفعله، هل تعتقد أن فِرَق الصيانة ستكلِّف نفسها العناء لاجتياز منطقة الحرب كما نفعل نحن للوصول إلى الدائرة 69؟ لن يفعلوا ذلك.

كانت البداية منذ زمن قديم قِدَم الثورة، كنتُ ألمعَ المهندسين في هذه البلاد، درستُ في أمريكا، وعرفتُ خبايا ما تقتصر العقول الصغيرة على فهمه، تطوَّعتُ للعمل في هذه المحطة للإبقاء على النظام، فقط لا غير، النظام مُهِمٌّ، هل تعتقد أن حياتي بين هذه الأجهزة والحواسيب سعيدة، وبأنني أرى فيها قِمَّة طموحي؟، بالعكس، أنا حَمَل الله كما يقول الأمريكان السَّفلة، أضحِّي بنفسي من أجل الجميع، حسنًا، ليس من أجمل الجميع، ولكن من أجل الصوت القادم من سمَّاعة الهاتف، أحافظ على صحة الشبكة وأطمئنُّ عليها، إنني أعرف ما يفعله كلُّ زِرٍّ، كلُّ خيط توصيل، كل مفتاح، كل برنامج، لولا وجودي في هذه المحطة لعاش الجميع في ظلامٍ دامِسٍ لسنوات، لنَفَقَت الخِرافُ في المزارع، وذبلَت محاصيل البطاطس، لفسد الدقيق في المخابز، ولَتَحوَّلَت محطَّات تعبئة البنزين إلى مراعٍ للإبل، لَتَكسَّرت رُكَب الأمهات في طوابير المصارف دون الحصول على معاشاتهم، ولَفَتَل السارقُ الشُّرطيَّ، وذبَحَ الرجل زوجته، وصار العرق هو الكنز الوطني في هذه البلاد، لجَفَّت المياه وسادت رائحة براز البشر في بيوتهم، ومسحوا مؤخِّراتهم بالوزر، ولَسَدَّت القمامة الطرقات... أنا عصبُ الحياة، أنا الترس الذي يُدوِّر العجلة. هل تجد من حامِدٍ لحميد؟ لا، لقد كان الإنسان كفورًا حقودًا جَحودًا.

روتيني اليومي يبدأ بالكشف على شبكتي العزيزة كأي طبيبٍ ماهِر، أسلِّم على الكابِنات وأقبِّلها، وأخبرها بأنها تبلي حسنًا، أجرِّد المفاتيح المغلقة والمفاتيح المفتوحة، «صباح الخير يا كابنة الدائرة عشرين... هل أرهَقَكِ السَّفلة؟، لا عليكِ... سترتاحين اليوم»، «آه، مرحبًا يا مفتاح الشارع تسعين في الدائرة خمس عشرة، أتذكَّر أنني أغلقتُك بالأمس، لماذا فتحت؟ هيا لنكشف عليك»، أجلس على الحاسوب بينما أشرب قهوتي وأدخِّن سيجارتي الأولى متتبِّعًا كفاءة الشبكة ومَواطِن العجز، أكتب تقريرًا أوَّليًّا مُشكِّكًا فيما يفعله منتجو الطاقة، أكثر المهندسين فشلًا وكسلًا في هذه البلاد، عجز في الإنتاج في المدَّة الممتدَّة من وإلى، زيادة في الطلب في المدَّة الممتدَّة من وإلى، عجز في الإنتاج هنا وزيادة في الطلب هناك، لن يستوعب عقلك الصغير التافه ما مدى التوتُّر الذي يُلمُّ بي بينما أحاول الحفاظ على زمام الأمور، أنا درستُ في أمريكا، كنتُ أثني ركبتيَّ للدراسة والبحث والتدقيق، بينما يذهب أقراني الماجنين لدراسة أنواع السُّكْر في حاناتها، والبحث والتدقيق

في مؤخِّرات فتياتها بنقود الدولة، المهم، عندما أفهم وضع الشبكة ومقدار ما عليَّ العمل عليه، أبدأ في كشف وصيانة ما أمكَنني من معدَّاتٍ، مُنقَطِعًا بين الفترة والأخرى للرد على الهاتف، يأتيني أمرٌ من الصوت الذي لا يفقه أي شيء عن التيار الكهربائي ووضع الشبكة، يخبرني «الدائرة الفلانية، لا تقطع عليها الكهرباء بعد الآن»، «اقطع الكهرباء عن الدائرة الفلانية لأيام ثلاثة»، «الدائرة خمسة وعشرون، أَعِدْ لهم الكهرباء لخمس ساعات»، وأوامر كهذه تجعلني أدرس الوضع، فإذا لم أقطع عن الدائرة التي يعيش فيها السيد الرئيس؛ سيتعيَّن عليَّ توزيع الحمل على دوائر مختلفة في البلاد، وهذا يحتاج حسابات ومتابعة البرنامج على الحاسوب، وإذا شاءت الدولة أن تعاقب حيًّا مُعيَّنًا بقطع الكهرباء عنهم لأيامٍ ثلاثة؛ سيتعيَّن عليَّ أن أعاقب مع ذلك الحيِّ مجموعةً من الأحياء المحيطة به، وإذا ابنة عمِّ السيد الرئيس تعاني من الأرق وتحتاج أن يهفَّ المكيف على مؤخِّرتها، لكنها لا تعيش في حيِّ السيد الرئيس؛ عليَّ أن أتولى الأمر. كل هذه الأوامر اليومية التي تقضُّ مضجعي صحبة رنين الهاتف الذي لا يتوقَّف حتى في الليالي الكالحة السوداء البهيمة، ولا زلتُ أتمالك أعصابي، لقد استيقظتُ خمسمئة وعشرين ألفًا وثلاثمئة وثلاثين مرَّة على رنين الهاتف في عِزِّ الليل؛ فقط لأعمل على تغيير وضع الشبكة، إنَّ أسعد أيامي هي التي يحلُّ فيها الظلام على الجميع، حاولتُ أن أكون صبورًا، وعملتُ جاهدًا لأن لا أعتاز لأحد، ولكن نوبات الانهيار التي ازدادت في السنة الأخيرة هي السبب الوحيد الذي يجعلك أمثالك موجودين في غرفة التحكم، أنت فقط ذراع موجودة لأنال قسطًا من الراحة.

لا، لا تَقُم بذلك أيُّها الغبي.

(اللامبة)

اصمِت يا عرفي، لمرَّةٍ واحدة اصمِتْ، وأنصِتْ لما أقوله للرجل. قد أكون غبيًّا، ولكن سَئِمتُ من إسكات الناس لي وطمسهم لوجودي. أريد أن أخبر هذا الرجل الثرثار بقصتي قبل أن نتحدَّث.

عند عودتي الأسبوع التالي بدأ النزاع بيني وبين العرفي، كان نائمًا لما رنَّ الهاتف، حاولتُ إيقاظه، لكنه كان سكرانَ ليلةَ الأمس، وقد نام وقنينة القودكا في يده، نهرني، أقلقني رنينُ الهاتف الذي حذَّرَني العرفيُّ أكثر من مرَّة من الرد عليه، مرَّت في بالي أول مرَّة حاوَلتُ فيها الرَّدَّ على الهاتف أسمعُ الصوت الآمِر يخبرني بأن أغلق إضاءة الشارع الغربي لأنَّ «أبناء العاهرات» -كما قال- أشعلوا النار في سيارة من سيارات الحكومة احتجاجًا على انقطاع الكهرباء، «أسبوع كامل... لا أريدهم أن يروا نور الكهرباء إلا ساعَتَيْن كل يوم، ما يكفي لأن يبقى لحم الدجاج طازجًا دون أن يفسد»، قال لي الصوت، كان العرفي في الحمَّام، عندما خرج منه رآني أحمل السَّمَّاعة، انقضَّ عليَّ ولَكَمني في وجهي، «أخبَرتُكَ ألف مرة أيها الغبي ألَّا تلمس سماعة الهاتف»، «لكن... لكن... لكن...»، «لكن ماذا؟»، «لك... لك... لك»، «لكن ماذا؟ هل أنت دجاجة؟»، رماني العرفي أرضًا وأحضر سلكًا كهربائيًّا يحاول صعقي به، جلس على صدري ولامس أطراف السِّلك؛ فخرَجَت شرارة نارية من الكهرباء، «المرة القادمة سأوصل كل سلك في أذن»، قال لي، «ماذا قال؟»، سألني،

«الشارع الغربي، طرح أحمال طويل لمدَّة أسبوع، 22 ساعة في اليوم»، «ابن العاهرة، سأجعلها 20»، «لكنه قال 22 ساعة»، «20 يعني عشرين، لديَّ خالتي تقطنُ في ذلك الشارع النحس». قال العرفي وفعل ما فعله، «هل قال لك شيئًا آخر؟»، «لا، هذا كل ما قاله»، «حسنًا»... وقد جاءت المرة الثانية هذه اللحظة، والعرفي نائمٌ، وصاحب الصوت الآمِر لن يتوقَّف عن الرنين إذا لما أرُدَّ، «يا كلاب... دولة عاهرة ونذلة تجرُّني إلى الفساد»، أسمع العرفي وهو يشرب من الكحول بينما عيناه مُغلَقَتان، بدَّلتُ نظري بينه وبين الهاتف، تقدَّمتُ مرتجفًا نحو السمَّاعة مُتخيِّلًا شكل العرفي وهو يضع الأسلاك الكهربائية بين أذنيَّ ليصعقني، توقَّفتُ أمام الهاتف في اللحظة الأخيرة التي توقَّف هو بدوره عن الرنين، هدأ روعي عندما أدركتُ أنَّ الحمل قد انزاح عني، لكن أعاد الهاتف رنينه بعد لحظات قصيرة، عرفتُ عندها أنه لا مفرَّ من الرد، حملتُ السماعة ببطء ووضعتها على أذني، «لماذا لم ترُدَّ منذ البداية؟ هذا الأمر غير مسموح، أنتَ تعرف ذلك، لديَّ 68 محطة أحتاج الاتصال بهم، أنت لا شيء، أنت نَكِرة... إذا أعَدتَّها مرة أخرى اعتَبِرْ نفسك مُقالًا، فهمت؟ حسنًا، الآن، الدائرة 20، شارع عشرة، اقطع عليهم الكهرباء لمدة أسبوع كامل، لا أريد أن أرى نور عواميد الإنارة في تلك المنطقة، لديَّ فكرة أفضل... اقطع الكهرباء عليهم كلَّ نصف ساعة لمدة أسبوع، فهمت؟»، «حاضر سيدي»، قلتُ له وأغلقت السماعة، عرفت المكان، لقد كان شارعي الذي أقطن فيه، ولا بُدَّ أنَّ صاحب الصوت مُستاءٌ من الدُّبِّ الذي رقص تحت توهُّج النار في احتجاجات الأسبوع الماضي. استيقظ العرفي، أخبرته بما أمرني إيَّاه الصَّوتُ، وقلتُ له إنني حاوَلتُ مرارًا أن أوقظه دون جدوى، «قال إنه سيطردك»، أردتُ أن أُشعِرَه بأنني صاحب فضل عليه، شكرني على ما فَعلتُ، وقال لي بأن أغلق المفتاح العاشر في الصندوق، عندها عرَفتُ المفتاح الذي يَلِجُ إلى بيتي، كان اكتشافًا عظيمًا، فعلتُ ما أمرني العرفي، ولكن بدلًا عن ذلك أغلقت المفتاح التالي، كان العرفي في ذلك اليوم كسولًا، ولم يَقْوَ على العمل؛ فكان يخبرني عند انتصاف الساعة أن أرجع لفتح المفتاح، ومن ثَمَّ في النصف الساعة التالية أن أغلقه، وهكذا، عملتُ على تتبُّع إرشاداته.

ألم أفعل ذلك يا عرفي؟ لقد أطَعتُ في كلِّ شيء تريده، لقد عرفتُ أنَّكَ لا تقطع الكهرباء عن حَيِّكَ رغم الأوامر المتكرِّرة لك لفِعلِ ذلك، وأنا لم أقُم بأيِّ شيء خاطئ، هناك وفرة من الطاقة، أليس هذا ما قلته لي ذات مرَّة وأنت سكران؟ أنَّ الأزمة قد افتَعَلتها الدولة فقط لتلهي الناس عن القضايا المصيرية التي تمرُّ بها البلاد؟ إذا لم أصدق كلام مهندس عظيم مثلك، فكلام مَن أصدِّق؟ ها؟ الصوت الأجش الذي يأتي من السماعة؟ إننا نعيش في المحطة كالكلاب، لا وجود لمكيِّفٍ واحد، مجرد مروحة صغيرة تُهوِّي سريرك، تنقلها عندما تستيقظ إلى مكتبك حيث تعمل طيلة النهار، الثلاجة شبه فارغة إلَّا من علب العصير المحلي، وزجاجات المياه، وبعض المواد الأساسية، أحيانًا أتألَّم عندما أخرج للراحة في الباحة فيكاد ضوء الشمس أن يصيبني بالعمى.

(الكاتب)

إذا جلست وبدأت في العمل على قصَّتي السخيفة، اللامبة مواطنٌ بسيطٌ محدودُ الدَّخْل، مغسول الدِّماغ، يدخل المحطَّة 69، التي سُمِّيَت القصَّة باسمها؛ ربما تيَمُّنًا بالمِصِّ الثنائي الذي يحدث للمواطن وللدولة، الدولة تضع قضيبها في فم

المواطن، والمواطن يتجرَّع ذلك القضيب كمشروب اللاقمي من شائعات وقرارات ارتجاليَّة، وحصَّة الكرزة بين الفينة والأخرى من كعكة الأموال التي يأكلها الفاسدون يوميًّا، مُضافًا على ذلك بلعه هذا العبث الصفيق بمصيره ومصير كلِّ مَن حوله، أحيانًا أعتقد أنَّ المواطن يستمتع بعملية البَلع والمصِّ مع بعضِ المنغِّصات عندما يدخل قضيب الدولة إلى مرّيئه، أمَّا الدولة فهي تدغدغ المواطن بشعارات الوطنية، وأنها تعمل جاهِدةً للمُضيِّ قُدُمًا في بناء الدولة المدنية، وبأنها لم تَخُن دم الشهداء، كما تسمح لنا أن نُعبِّر عن غضبنا الشديد منها على الفضاء السايبري. العرفي، المهندس السِّكِّير، والذي يبتزُّ منصبه ليفعل ما يشاء، مُتمكِّنًا من عدم قدرةِ السياسيين من معرفة ما الذي يقوم به وعدم رغبتهم في معرفة ما الذي يقوم به لطالما لم يغلق عليهم نور الكهرباء. إذًا، هذه هي شخصيات القصة، ما التالي؟ ماذا أحتاج؟ أحتاج أن أصنع صراعًا بينهما، سهل، الصراعات في هذه البلاد تشبه الخيال، كتيبتان أمنيَّتان تتقاتلان لأربعين يومًا؛ والسبب أنهما تريدان السيطرة على ذات محطَّة الوقود، أشعل أحد أفراد الكتيبتين النار في محطة الوقود بسيارات المواطنين داخلها، وأنشأ حربًا أكثر حمقًا من داحس والغبراء، أبناء عمومة ظلُّوا سنين في حالة نزاع على أرض فقط لأنَّ كل واحد منهم يدَّعي أنَّ إحدى أشجار النخيل الواقعة في منتصف أرض الآخر هي ملك أبيه، لا ينضب خيال كاتب في هذه البلاد أبدًا، بل من المعيب أن ينضب خياله، كل ما يمكن للكاتب أن يحتجَّ به لتبرير كسله وعدم رغبته في الكتابة هو أوضاع البلاد، وحفَّاظات الأطفال، وأنين زوجته عليه بأن يصطحبها إلى حديقة الحيوان... هذا كل ما في الأمر. بعد ذلك، كان عليَّ أن أبدأ القصة، وفي تلك اللحظة الحاسمة، مُستفيدًا من وجود تزوُّد حاسوبي بالكهرباء منذ نصف ساعة، انقطعت الكهرباء، سَبَبتُ الآلهة القديمة التي حكَمَت ليبيا، وجعَلَت منها أرضًا جرداء، توقَّف حاسوبي عن العمل؛ فالبطارية قد فسَدَت منذ زمنٍ، والكتابة لا تجزي مالًا، لم أتلقَّ يومًا ولو قرشًا واحدًا على ما أكتبه، تحرَّكتُ في الغرفة أكتب القصة في عقلي، لن ينال مني أبناء السفلة، فتحتُ نافذتي أراقب الشارع، بين بيوت الشارع كلها كان هناك بيت واحد به أضواء عرس تتوهَّج في المكان، سخرتُ من فكرة أنَّ صاحب البيت قد اتَّصل بأحد العاملين في شركة الظلام، وطلب منه أن يتوسَّط له هذا الأسبوع فقط، سيتعيَّن على هذا المواطن أن يقدِّم خدمةً لصاحبه، ربما أن يصرف له سيولة نقدية يوميَّة لمدة أسبوع فوق السقف المسموح، فكَّرتُ أنه يجب أن أُضمِّن مشهدًا كهذا في القصة، زاد ثِقَلُ ملابسي الداخلية، فنزعتُ الكنتيرا التي بُلَّت بالعَرَق في مدة دقائق معدودة، أشعلتُ سيجارتي وأعَدتُ التفكير في القصة، عاد التيار الكهربائي من جديد، أسرعت لجهاز الحاسوب وكتبتُ، لم تَمضِ سوى نصف ساعة حتى انقطعت الكهرباء مُجدَّدًا، نصف ساعة أخرى عاد، نصف ساعة أخرى انقطع، الرحمة... الرحمة يا زوجة الرئيس، الرحمة بنا، أرجوكِ، اقطعي عنه الجنس حتى يفكِّر في حالنا التعيس، قلتُ لنفسي. لم أعُد أحتمل، خرجتُ من الشقة متناسيًا عُربي، نزلتُ من درج العمارة جريًا، مرَرتُ بجانب إحدى الجارات، امرأة عجوز، «الشفع يا رسول الله» قالت العجوز لما رأتني، تحاول أن تغضَّ البصر، إلَّا أنني لمحتها تبتسم من رؤية قضيبي المهرول معي نازلًا للشارع، تذكَّرتُ سارة وأنا أكاد أصل إلى أسفل العمارة، وتفكَّرتُ أنه يمكنني أن أذهب لها في حي الرئيس؛ فقد سمعتُ أن الرئيس قد وعَدَ أهاليها بأن لا يقطع عنهم الكهرباء حتى نهاية العام، خرجتُ للشارع، سمعتُ نغمات الزكرة تأتي مترنِّحةً برائحة الكحول من حفلة العرس القريبة، كان الشارع فارغًا إلَّا من مجموعة من الشباب الذين انهالوا ضحكًا عندما حَلَّ عليهم جِرمي العاري،

وقفتُ هناك وخطبتُ في الناس بأنَّ الوضع خارجٌ عن السيطرة، صاح فيَّ أحد الشباب قائلًا: «قضيبك خارج عن السيطرة»، خرَجَت النساء والرجال من شرفات البيوت ينصتون للرَّجُل العاري بالأسفل وهو يهذي بكلام لا يفقهونه عن الثورة والخنوع، وبأن كل ما نمرُّ به لأننا مجموعة من الأغنام، أغنام صغيرة غير قادرة على الاعتناء بنفسها، كلمات كبيرة عليهم، لم يفقهوا ما سمعوه؛ فأغلقوا نوافذهم ولم يبقَ سوى الشباب، كان أحدهم يرتدي بزَّةَ ميكي ماوس وقد وضع رأسه بجانبه، أسرع الرجل الميكي ماوسي ليضع الرأس على رأسي، قال لي: «إذا أردتَ أن ترقص عاريًا في الشارع، على الأقل غطِّ وجهك». «أنا كاتب»، «مَن كاتب عليك»، «أريد أن أكتب قصتي، هذا كل ما في الأمر»، «اسمع يا رجل، لا أفهم ما تقوله، ولكن هل فكَّرتَ أن تعمل في مصوراتي؟ سأعيرك بزَّة ميكي ماوس هذه». «ماذا؟»، «نعم، هذا أفضل لك من هُراء الكتابة، لقد وجدت عملًا جديدًا في أحد المصائف، والظاهر أنهم يريدون دُبًّا، لقد ضاعت موضة ميكي ماوس للأبد»، «ضاعت موضة ميكي ماوس؟ ما الذي تقوله؟»، «كما أخبرتُكَ، الدِّبَبَة الآن هم الثوريون... لم يَعُد أحد يحب الجرذان».

عندها جاءتني الفكرة، نعم، لم يَعُد أحدٌ يحبُّ الجرذان، هل يمكن أن تنتهي قصتي بأن يقرض فأرٌ ما الأسلاك الخاصة بالمحطة 69 وينهي العذاب، أو... أو... الأفضل أن تكون هناك شخصية ثالثة باسم الفأر، فليكن مليشياويًّا، يدخل المحطة كروبِن هوود وينقذ الناس، أو... أو...

(العرف)

اسكت أيُّها الثرثار المزعج، صوتك قبيح ومُقرِف، لماذا تُمثِّل دور البطل؟ أنا أعرف الكُتَّاب، إنهم مجرد كائنات حقيرة لا هَمَّ لها سوى الاعتياش على حياة الآخرين، لقد أزعجني وجودك بيننا، وها أنت تزيد من حماقتك بأن تظن بأنَّكَ البطل بيننا، دور البطل هو دور مُزيَّف ولا يجري وراءه سوى الوهميّين أمثالك، لا أفهم رغبتكم في لعب دور البطل تارة ودور الضحية تارة أخرى، هل هذا من عقد طفولة؟ ولكن، لتكون هانيًا؛ لا توجد حبكة لتتبعها هنا، ولا وجود لمؤامرة لتفضحها.

لأُسهِّل عليك الأمر، وحتى لا يتَّسِع خيالك؛ نعم، لقد اتصل بي جاركم وأخبرني بما يمرُّ به، وأن عرس أبنائه الأربعة في الطريق، وسيكون جيِّدًا إذا لم تنقطع الكهرباء عنهم في الليل، سيسهِّل عليَّ إجراءات الحصول على عمل في الخارجية الليبية إذا أسديتُ له هذا الجميل، هل تعتقد بأنني ملتزمٌ فقط بما يُمليه عليَّ الهاتف؟ لا بالطبع، إنهم حمقى ومُغفَّلون، إنني أبيع ساعات طرح الأحمال إمَّا لقاء خدمات يُسديها لي المواطنون أو لقاء المال، هل تظنُّ بأنني سأعيش حياة رغيدةً بالمرتَّب الزهيد الذي تمنُّ عليَّ به الحكومة؟ أنا صندوقهم الأسود، وبصفتي ذلك الصندوق يجب أن أوفِّر حياة سعيدة لزوجتي التي أغيب عنها أكثر من شهر؛ حتى لا تخونني، ويجب أن أتحكَّم في ولاءات الناس لي، أنا في موقع سُلطَة وستفعل مثلي إذا كنت في ذات موقعي، فكفانا غراميَّات البطل المغوار، لقد شربتُ أمثالك وقذفتهم بسهولة، لم يَطُل الوقت حتى

كشفت خداعهم، أحد المثقَّفين أمثالك عندما عرف بأنني المتحكِّم في مصيره اليومي كتب فيَّ أشعارًا وعرض أن يذيع برنامجًا في إحدى قنوات أصدقاءه لتوعية الناس بضرورة ترشيد الطاقة الكهربائية.

وهذا الغبي الذي تنصتُ له، هل قال لك بأنه عرض عليَّ أن نعذِّبكَ بقَطع النور عليك كأرجوحةٍ عندما عرف من لقائه بك في الدُّكَّانة بين حبّكَ وحبِّه، وأخبرتَه بكامل سذاجتك لمَّا قال لك بأنه يعمل في الشركة، وبأنه سينقل همومَكَ كمواطن للرؤساء فيها، هل أخبرك بأنه صاحب فكرة طرح الأحمال عليك كلَّ سِتِّ ثوانٍ لمدَّة ساعة كاملة، فقط لأنه رأى أن ذلك سيكون مَرِحًا؟ ماذا كان ردِّي؟ يجب ألَّا نلعب بمصائر الناس هكذا، يجب ألَّا نكون ساديِّين في فِعل ما نفعله، يجب ألَّا يكون المرح أحدَ أسباب القيام بما نقوم به، ألم أخبره بذلك؟ هل تعرف ما الذي قال لي؟ «أرجوك يا عرفي... أرجوك، هذه المرة فقط».

(اللامبة)

لن أعلِّق على الأكذوبة التي ألصقتَها بي الآن يا عرفي، أريد فقط أن أنهي ما أريد قوله، ومن ثَمَّ سنتفاهم.

ألم تأمرني بأن أغلق مجموعة من المفاتيح في دائرة وسط البلاد تمامًا، رغم أنَّ في ذلك اليوم بالذات كان هناك وفرة من الطاقة؟ لقد فعلت ذلك، وكان ما فعلته واضح العيان، أردت للناس أن تخرج في مظاهراتٍ ضدَّ أحد المسؤولين في الشركة، الذي كنتَ في خلاف معه بعد أن اتَّصل بكَ ذلك اليوم ومسح بكرامَتِكَ الأرض، لقد سمعتُ حديثَه معك، كنتَ تعتقد أنَّك جزءٌ مهمٌّ في المنظومة، ولكنه أخبرك بأنك مجرَّد بوَّاب، وكل سنوات دراستك في أمريكا يُمكِنُكَ أن تلقي بها في الفراغ، حاوَلتَ تلك المرة أن تتصل مع أحد الصحفيين لتُسرِّب بعض المعلومات عن فساد الشركة، ولكنني أقنعتُكَ بأنَّ ما تفعله خاطئ وقد يضرُّ بمصلحتنا، ألم أفعل ذلك يا عرفي؟ أنا أحترم عِلمَكَ، ولكن أحيانًا لا تفقه الكثير في هذه الحياة.

المهم، لم يمضِ سوى يوم واحد حتى علم العرفي بما أقوم به من إغلاق المفاتيح الخاطئة، نشبَت معركةٌ كلامية بيننا لما تعَتَّني بالغبي، بينما أعاد مفتاح شارع 11 وأغلق مفتاح شارعي، قلتُ له بأنني كشفتُ كلَّ ما يقوم به، وبأنني لن أرضى بالوقوف متفرِّجًا دون أن أستفيد مثله من المنظومة، أعدتُ الكهرباء لشارعنا، وتخيَّلتُ زوجتي وقد سَعِدَت تفكِّر بأنني أقوم بهذه التضحية من أجلها، أمسك العرفي بخناقي وهدَّدني بأن يطردني خارج المحطَّة لو أعَدتُ فِعلَتي مرَّةً أخرى، كنتُ قريبًا من قنينة القودكا الفارغة، حدَّقتُ فيها وأخبرته بأنني لن أقوم بذلك، قطع هو الكهرباء عن شارعي، أخذتُ القنّينة بسرعة وضربت رأسه بها، ومن ثَمَّ جُنِنتُ؛ فأغلقتُ كلَّ المفاتيح في الشبكة، إلَّا مفتاح شارعنا، تخيَّل في دقائق من حياة هذه البلاد كان الحيُّ الذي أقطن فيه هو الحي الوحيد المنار بين مئات الأحياء، بقعة نور في ظلامٍ دامسٍ لَفَّ الجميع: رئيس الحكومة ووزارة الداخلية وحتى مبنى الشركة والكتائب المسلَّحة وكل ما في هذه البلاد من مقرَّات حكومية وأجنبية قويَّة، شعرتُ بأنني أنتصر على كل هؤلاء، وبأنني إنسانٌ مُميَّز، كان العرفي مُلقًى على الأرض والدم ينبجس من مؤخِّرة رأسه، مُغمًى عليه إلَّا قليلًا، لكن لم يَطُل الأمر حتى عاد له وعيه، استيقظ يشعر بألم شديد، بينما كنتُ جالسًا على مكتبه أُدخِّن سيجارة

انتصاري على المنظومة، نهض مترنّحًا يمسك رأسه، بدأ يثرثر بكلمات غير مفهومة بينما يحاول أن يتمالك نفسه، «أيها الجرذ الحقير»، «سأقتلك»، هاجَمني قافِزًا على جسدي يُسدِّد لي اللكمات، لكن، رنين الهاتف أعاد له عقله، «ماذا فعَلتَ أيُّها السافل؟»، أخبرني بينما نهض يمسك السَّمَّاعة مرتَعِشًا، نَهَضتُ أحمل السِّلكين اللَّذين هدَّدني بهما تيك المرة حتى أدافع عن نفسي، «حاضر سيدي... حاضر، نعم، نعم... هناك مشكلة في المحطة أحاول إصلاحها الآن»، حاول صوت العربي المرتجف أن يخدع صاحب الصوت الآمِر ناظِرًا لي، «أظلَمتَ البلاد كلها أيها الأحمق، لا يجب أن يحدث هذا الأمر أبدًا، قال لي بعد أن أغلق السماعة، وقفتُ أمام الصندوق حيث مفتاح شارع 10 مُهدِّدًا إيَّاه بعدم الاقتراب، «لنعقد اتِّفاقًا»، قال مهدِّئًا إيَّاي، «لن نقطع الطاقة عن شارعك لمدة أسبوع، ومن ثَمَّ نقطعها ساعات قليلة كل يوم، ما رأيك؟»، «حسنًا»، اتَّفقنا، «ضَع الأسلاك جانبًا»، وضعتها جانبًا، ومن ثم جلس على مكتبه وأمرني بفتح مجموعة دوائر وترك البقية مُغلَقة حتى نصل إلى السِّعة المناسبة، «هاه، ما رأيك... الجميع سعداء الآن، حسنًا، إلَّا أصحاب الدائرة خمسين والجنوبيين الذين لا يستحقُّون الضوء على أيَّة حال»، قال بينما يقترب مني، أخذ الأسلاك العارية كأنه يحاول أن يعيدها لحالتها الطبيعية، كنت أريد الخروج لتنفُّس بعض الهواء النقي في باحة المحطَّة عندما مرَّ تيَّارٌ كهربائي سريع في أذنيَّ أسقطني.

(الكاتب)

أخذت رأس ميكي ماوس من الرجل، ومن ثم تذكَّرتُ شخصًا التقيتُ به منذ أيام في دكَّانة، كان ذلك الشخص يشبه إحدى شخصيات القصة التي فكَّرتُ بها، أعطاني رقم هاتفه وودَّعني بصدر رحب، تذكَّرتُ غُربتي؛ فركضتُ عائدًا للشقة، وأخذت هاتفي النَّقَّال واتَّصلتُ بالرقم، بعد لحظات جاء صوت من السَّمَّاعة لا يشبهه، كان ينتظر مني أمرًا ما، «آسف، أعتقد أن الرقم خاطئ» قلتُ للرجل في الجهة الأخرى من السماعة، «لا تُعِد الاتصال به إذًا»، قال لي، وضعتُ رأس ميكي ماوس على طاولة العمل، كانت الكهرباء قد عادت لحُسن الحظِّ؛ فجلستُ أُنهي القصة الوقحة، أنظر بين الفينة والأخرى لابتسامة ميكي ماوس الغريبة.

غصتُ في القصة، كنتُ أكتب لساعاتٍ أربع دون توقُّف إلَّا لبعض السجائر، انهمر الإلهام على أصابعي كالشلال، وأردتُ أن أغتسل به قدر المستطاع، أذَبتُ نفسي في الكلمات، انقطَعَت الكهرباء، لكن لم أتوقَّف، أخذتُ كرَّاسة وكتبتُ ما تبقَّى من القصة فيها وضوء مصباح الهاتف يرشدني إلى السطور والكلمات، لم أنتبه للعرق ولا الغرق في الحرارة، كان كل ما عليَّ فِعلُه هو تسليط غضبي على القصة، أن تكون شَرِسةً وحقيرة وغاضبة ومهينة لي شخصيًّا، يجب أن تنتهي حتى لو توقَّف ضوء الهاتف عن الاستجابة وتعيَّن عليَّ أن أنهيها في الظلام. رنَّ الهاتف، ولكن لم يكن صاحب الرقم هو المتصل، بل سارة، كان يأتيني صوتها المرتجف خائفةً من انقطاع الكهرباء عنها، «لا أستطيع المتابعة، لديَّ مسلسلٌ تُركيٌّ أريد مشاهدته»، «لا عليكِ يا حبيبتي»، كنت أريد أن أخبرها بأنني تعذَّبتُ لمئات الساعات دون أن أنبس ببنت شفة عن عذاباتي في هذه الحياة، وبأنني نسيت الأفلام التي شاهَدتُها في تاريخي، وبأنَّ كل ما أحتاجه الآن من الطاقة هو مقدارٌ مُلائِمٌ لتعبئة خزَّان المياه في العمارة، فقط لا غير، وبأنها على أحسن تقدير تعيش حياة سعيدة ويجب عليها بين الفينة

والأخرى أن تشارك الشعب عذاباته لتقدر حياتها، «اسمعي، عليَّ الذهاب... هناك أمر ضروري عليَّ فِعلُه»، قلتُ لها، «أنتَ لم تعُد تحبُّني، أنا خائفة، ليس لدينا مُولِّد ولا مصابيح يدوية، كل ما هنالك هو ضوء الشموع»، «إذًا أشعِلي شمعةً والعني الظلام»، قلتُ لها، مُفكِّرًا بأنه بالطبع لن تحتاج لمولِّد ولا مصابيح يدوية. أغلقتُ السَّمَّاعة وأعَدتُ كتابتي للقصَّة القبيحة التي ستتكرر فيها كلمة مصباح وكهرباء ومُكيِّف وطاقة وأسلاك- عشرات المرَّات؛ فقط لملء الفراغات في قدرتي الإبداعية لخلق قصة مُوحَّدة يمكنها أن تتحدث عن عذاباتي كمواطن بسيط.

عندها رنَّ الهاتف مرة أخرى، كنتُ أجهِّز إهاناتي ومسبَّاتي لسارة التي ملَلتُ وجودها في حياتي عندما رأيت الرقم الذي اتَّصَلتُ به يعاود الاتصال، تغيَّر الصوت القادم منه لصوتٍ يشبه صاحبي في الدُّكَّانة، «المحطة 69، الطريق 66 بجانب شجرة النخيل الوحيدة في الطريق، أحتاجك الآن في المكان، تعال بأيِّ سلاحٍ يُمكِنكَ حَملُه»، أغلقتُ السمَّاعة وبحثتُ عن أسلحتي، لم أجد إلَّا رأس ميكي ماوس، الذي ارتديتُه على رأسي خارجًا مرَّةً أخرى من الشقة.

ولهذا؛ أنا الآن هنا أمامكما...

(المحطة 69)

واجه ثلاثتُهم ثلاثتَهم، رَجُلٌ يمسك بمفتاحٍ يُسيطِر على إضاءة المحطة، بينما يلتفُّ جسده حول الآخر، الثالث كان واقفًا أمام الباب عاريًا تمامًا، وقد غطَّى رأسه بقناع كبير لفأرٍ يبتسم بطريقة شريرة، يتبادل الرَّجُلان الأدوار حول المفتاح الرئيسي، بينما يقف صاحب الرأس الكبيرة مُهستِرًا يحاول أن يخبرهم بقصَّته التي لا يريدان سماعها على أيَّة حال، لا أحد يريد سماع ما يريد قوله هو، فكَّر أنَّ عليه التَّخلُّص منها بأسرع ما يمكن، هي مجرَّد قصة مُخجِلة ووضيعة، يجب أن تتوقَّف عن نهش خلايا مُخِّه حتى يتمكَّن من كتابة أعظم قصة يريد كتابتها، كان أحد الرجلين ضعيفَ البنية، يتألَّم من مكان أذنيه صارخًا بعد أن صعقه صاحبه الغليظ الملتفُّ حوله، بعد أن أعياهم الحديث ملأهم الصَّمتُ كما يملأ الظلام المدينة، قطع صمتَهم رنينُ الهاتف الموضوع على الطاولة بجانب الحاسوب. «أنتَ، أجِبْ الهاتف... لم يعُد الأمر مُهمًّا» قال الغليظ لصاحب الرأس الكبيرة، رفع السَّمَّاعة، صوت نسائي عَذبٌ خرج منها يقول له:

- استيقظ... الأكسچين انقطع، علينا ملءُ خزَّانات الأكسچين في البيت حتى لا نفقد التَّنفُّس.

تاجوراء 2020